إبراهيم الفقيه

ما زال للصبار روحٌ

رواية

دار النهضة للنشر

ما زال للصبار روح

The cactus still has soul

روايـة

إبراهيم الفقيه

الإهداء

إلى كل مناضل شريف..
إلى كل من أحب وطنه وأخلص له..
إلى كل القلوب المؤمنة والنابضة بحب فلسطين..
إلى أخي علي.. وإلى روحه الطاهرة..

أهدي هذه الرواية.

****

كلمة

حين أصرّ على الرحيل تلك الليلة، أعطاني كل ما يملك من وجع الكلمات الحزينة.

حين أمعن في السفر بعيداً، تركني أتلوى في انتظار الغائبين الذين ارتحلوا تحت وهج الظهيرة، وأمطار النار التي يسكنها النابالم.

كان يرتحل مع وجع المواسم، وأغاني الحصاد الذابلة، وهو يستقل نفس القطار العائد من نفس الدرب.

قد يأتيكِ يا أرضي المصلوبة عائداً..

وقد يعود الغريب إلى مدائن غربته شهيداً..

أيتها البعيدة القريبة..

انتظري قوافل العودة.

انتظري العائدين والشهداء..

فرغم الصعاب والمجازر، ورغم طول المشوار، إلا أن القوافل لن يتوقف زحفها..

ومع انبلاج الفجر ستعود.

إبراهيم الفقيه

صالح

رغم الفرح الذي غمرني، وأخي يدعوني خلال مكالمة هاتفية لحضور حفل زفافه في بيروت.. لا أدري ما الذي جعل قلبي يخفق خفقاناً أكثر من المعتاد، شعرتُ بانقباض في أعماقي.. وحاولتُ طرد الفكرة التي تلبستني تلك اللحظة.. حدثتُ نفسي أن أخي "صلاح" استطاع أن يطرد اليأس الذي عشش في صدره لمدة طويلة، وانتصر على فكرة الموت التي كانت تراوده وتهز كيانه.. وفي أعماقي رحت أتساءل عن فكرة التغيير التي داهمته وجعلته يغير موقفه، ولا أدري لماذا تسارعت إلى ذاكرتي فكرة الموت من جديد.. أجل، الموت الذي تسابق إلى ذهني مع فكرة الزواج، واحتل مكاناً في الزاوية المعتمة منه.

عدت لفرحتي متناسياً كل شيء عداها.. تناسيتُ دقات قلبي المتسارعة التي لم أعرف لها سبباً غير الغموض والإبهام، وحسمتُ الأمر سريعاً، عندما قررت أن أترك عملي في الخليج والسفر إلى لبنان.

أقلعت الطائرة من المطار في الرابعة بعد الظهر، وقبل أن ترتفع إلى عنان السماء ، قفزت إلى ذهني صورة أخي، قبل أن يلتحق بالمقاتلين ويكون ثائراً.. يوم أن كان يعشق الحياة

ويُبحر في مدينة السلام.. راحت ذاكرتي تمخر في بحر من الذكريات.. تلتقط الأشياء البعيدة والدقيقة، وتعيدها إلى صور وأحداث متحركة على شاشة صغيرة كوّنها نظري على نافذة الطائرة.. المشاهد كانت تكبر وتعبر ذاكرتي كأنها لم تكن من الماضي، في الماضي كنا نعيش معاً في ربوع الوطن وبين أحضانه.. رحتُ أرقب الشريط كفلم سينمائي، شعرت أن شيئاً من الأعماق يشدني لمتابعته، عادت عقارب الزمن إلى الوراء، وأيقظت الذكريات الماضي وأحالته إلى حاضر وواقع، شاهدت بأم عيني أخي صلاح في عامه الدراسي الأخير يغادر البيت في الصباح، بيده مجموعة من الكتب وعلى شفتيه ابتسامة.. يقف، يلتفت يمنة ويسرة، تضيع الابتسامة، وتهرب نظراته إلى الطالبات من خلال المراييل الخضر في الشارع المؤدي إلى باب العامود، ثم يقف لاهثاً يلتقط أنفاسه منتظراً مريولاً أخضر بعينه.

كثيراً ما كان يلتقي مع من رفّ لها قلبه في الحافلة وقت انصرافه من المدرسة.. نظراتها الوديعة كانت تضئ كآبته كما كان يقول، يكتفي بالنظر إليها خلسة، ومع أنه كان تواقاً للتعرف عليها، إلا أنه كان يقاوم رغباته، ويعرف أن هذه العلاقة ستموت يوماً بحكم التلمذة.

قال لي ذات مساء أنه كثيراً ما تمنى أن يعيش قصة حب تُجمّل حياته، تضئ السراديب المعتمة المقبورة فيها أحلام شبابه، لكنه كان يعلم أن الحب لم يعد مجرد زواج سعيد وسادة فوق القمر.. في هذا العصر الزواج مسؤولية وواجبات.. وهو القاصر عن كل شيء، فكيف يسمح لقلبه أن يقع فريسة للحب!.

ومع أنه كان يتجنب الحديث عن حبه الضائع، إلا أنه حدثني عن قصة حبه ولقائه الأول معها... كان محشوراً بين أجساد الركاب المتلاصقة في الممر الأوسط للحافلة التي تقله إلى بيته، يتنفس بصعوبة والعرق يتفصّد من جبينه، كما يرشح من آنية فخار في لظى الشمس، شاهدها تختلس النظرات إليه، طأطأ رأسه وعاد يفكر في أحلامه حتى وصلت الحافلة إلى المحطة التالية.. وبدلاً من أن يخف الزحام، تزايد عدد الركاب حتى كاد يختنق..

قطعت الحافلة حبل أفكاره وتوقفت للمرة الثانية، ترجلت الفتاة، ولا يدري كيف اندفع خلفها مسلوب الإرادة على غير عادته، إذ كثيراً ما كانت تترجل من الحافلة فيبقى يطاردها بنظراته حتى تختفي في زقاق جانبي، نظرت إليه بدهشة، تألقت الفرحة في عينيها، تمهلت في سيرها، خطواته ظلت متثاقلة مترددة، ولا يدري لماذا ترجّل من الحافلة وانقاد خلف

نزواته.. ارتعش جسده عندما مرّ جانبها دون أن ينطق بكلمة، فعادت تنظر إليه باستغراب، احتضنت كتبها بين يديها على صدرها وأسرعت نحو البيت.. عرج إلى طريق جانبي وراح يشق طريقه إلى بيت شقيقته القريب من المكان، ولم يستطع أن يخفي ما بداخله، فقام ينظر من النافذة لعله يشاهد فتاته، ويُحلّق في سماء عينيها، لكنه عاد خائباً، فجلس يسأل شقيقته عن حالها وحال زوجها وطفلها، ثم انصرف.

تلك الليلة شعر بطول ليله للمرة الأولى في حياته، وأخذ يرقب بزوغ الفجر بفارغ الصبر.

مساء أحد الأيام وبينما كان في زيارة لشقيقته دقّ جرس الباب، فوجئ بالفتاة تقف وجهاً لوجه أمام الباب بعد أن فتحه، تسمّر ولم يدرِ ماذا يقول، كانت ترتدي تنورة سوداء وقميصاً أبيض، سألته عن شقيقته، قال "تفضلي إنها في الداخل"، تلعثمت وتورّدت وجنتاها وقالت: "لا، سأعود مرة ثانية".. وانسحبت مسرعة من أمامه يلاحقها بنظراته حتى اختفت بعد أن زرعت في قلبه لقاء آخر "مرة ثانية".

***

صلاح

تكرّرت اللقاءات في بيت شقيقتي، وفي بيتي أيقنتُ أن بذرة الحب انغرست في شراييني، عرفت ذلك من خلال السهر والتقلب في الفراش وصورتها تلاحق مخيلتي، وفي قرارة نفسي كنت أتمنى النجاح في سنتي الدراسية الأخيرة لأجد وظيفة وتستقر حياتي مع من سلبت من عينيّ النوم.. لكن الحظ لم يحالفني، فنجحت "سهير" وأخفقتُ أنا.

لم أعرف بأي وجه أقابلها، فكّرتُ بالهروب من حياتها، لكنها رأت من واجبها أن تكون رفيقة محنتي لتخفف معاناتي وتشد من أزري وعزيمتي.. قلت لها في معرض حديثي معها:

- أشعر أني إنسان فاشل، والإنسان الفاشل غير جدير بثقة الآخرين، إني لا أستحق نظرة واحدة منك.

قالت: حرام عليك أن تقول هذا الكلام.. فهل يعقل أن أبتعد عنك من أجل نجاح أو رسوب.. كيف بالتي يصاب حبيبها بعاهة مستديمة، ومع ذلك تبقى محافظة على حبها، الحب أقوى من الفشل الذي تعتقده.

شعرتُ بالحب يطفح من عينيها وهي تدفع أعماقي بأمل المستقبل وإعادة الامتحان حتى يتحقق نجاحي، ومع أني كنت واثقاً أن حالة والدي المادية لا تسمح بذلك، إلا أني لم أستطع مقاومة نظراتها، ورحت أحدث نفسي "كنت أحلم بفتاة مثل سهير عندما كنت أعانق أحلام الغد، أما وقد ضاعت الأحلام، فلم يبق أمامي غير الواقع، وواقعي يبعدني عن أحلام الحب.. بعد نجاحي سوف يبحث قلبي عن مسرات تخصه".

***

توالت أيام الشقاء والحيرة، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ولج فيه والدي غرفتي وأنا شارد الذهن، جلس أمامي ينظر إلى وجهي حائراً وكأن في رأسه مشروعاً ينهي شرودي، وقال بلا مقدمات "يا بني.. ما رأيك في أستراليا؟".

نظرتُ إليه بذهول أستطلع ما في أعماقه وقلت بلا مبالاة "أعتقد أنها بلاد جميلة وذات حضارة راقية".

شعرتُ أن كلماتي اخترقت جسد والدي كالسهام المسمومة، وكأنه عرف إلى أي مدى وصلت حالتي منذ أن رسبت في الثانوية العامة، فقال:

- أنا لا أسألك عن جمالها.. ما بك يا ولدي! أريد أن يكون عقلك معي.

أحسستُ بجدية الموقف فأصغيت له وهو يضيف:

- لا شك أنك تعرف ظروفنا الاقتصادية ومدى حاجتنا للمال، وليس لنا غيرك بعد الله.. كان أملي أن يبقى أخوك صالح معنا، لكننا لم نعد نعرف أخباره بعد أن قال لنا الصليب الأحمر أنه نزيل السجون الإسرائيلية، أثر عملية تسلل إلى الأراضي الفلسطينية، وكان أملي أن تنجح وتدخل الجامعة، لكن الأحوال ساءت.. ففكرت أن أبعثك إلى ابن عمك في أستراليا، تساعده في عمله، وتساعدنا في تدبير أمورنا المالية، فما رأيك!؟.

كلمات والدي أثارت تساؤلات عدة في رأسي.. تساءلتُ في قرارة نفسي: "أستراليا!.. هذا يعني الابتعاد عن سهير، هل هذا معقول!، أيعرف والدي بقصة حبي معها، ولهذا أراد أن يبعدني عنها!".. لكني أبعدت هذه الفكرة وقررت أن أفكر بعقلي لا بقلبي، فرأيت أن السفر إلى أستراليا يعني العمل وإحضار المال، وهذا يعني المستقبل الذي أبحث عنه، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تقرّبني من سهير.. فقلت "إنها فرصة العمر، ولن أخالفك الرأي يا أبي".

***

في لقائي التالي مع سهير، قلت لها أني أخبئ لها مفاجأة سارة.. هلل وجهها بشراً واستعجلتني "أخبرني يا صلاح ما هذه المفاجأة؟".

قلت مفاخراً "قررت السفر إلى أستراليا".

خيّم الصمت على المكان لحظة، تغيّرت ملامح وجهها، وقالت:

- غير معقول، لا شك أنك تمزح.

أكّدتُ لها ما أنوي فعله. فجأة تجهّم وجهها ووقفت ثائرة:

- مستحيل، تسافر وتتركني لمن!، للعذاب أم للوحدة!، هذا غير معقول يا صلاح، أنا على يقين أنك لن تسافر وتتركني.

ذابت البسمة عن شفتي ووجهي، وضاعت فرحتي في ذهولها، قلت "ماذا تقولين!، ولماذا المستحيل!، سأسافر لكي أعمل ونتزوج".

صمتت لحظة، حاولت أن تمسح الدموع التي اختنقت في عينيها، وبصوت مخنوق قالت "لا أريدك أن تسافر، فأنا لا أتحمّل فراقك".. ثم أدارت وجهها جانباً وتمتمت: "إذا سافرت يا حبيبي وتركتني وحيدة، سأضع يدي بيد الحزن وأسير في درب الآلام، ورفيقتاي الوحدة والكآبة.. وبدلاً من أن أترك

خيالي ينسج أروع صور للحب، سأترك دموعي تبني أبراجاً من الأسى واللوعة، لا، لا يا صلاح.. لا تسافر وتتركني وحيدة".

- لكني سأسافر من أجلك ومن أجلي.. لقد قررت ذلك، افهميني.
- إذن قررت. قالت ذلك، وساد صمت قاتل جعلني أشعر أني بحاجة أن أذرف الدموع معها.. فمدّدت يدي حتى لامست يدها، وأخذت أتحسسها وكأن لحظة الفراق قد حانت.

فجأة هبّت واقفة، وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة انسحبت عائدة إلى بيتها حائرة مذهولة.

***

سهير

أغلقتُ باب غرفتي بالمزلاج من الداخل، وألقيت بجسدي على السرير، مطلقة العنان لدموعي تنهمر على وجهي الشاحب، شعرتُ بتعب شديد وعيناي معلقتان إلى سقف الغرفة.

كنت شاردة الذهن لا أعرف ما يدور بخلدي، راح ضباب الفراق يسد طريق التفكير على عقلي، صحوت على صوت والدتي تدعوني لتناول طعام العشاء، قمت، فتحت الباب واعتذرت.. لكن والدتي نظرت إلي بتعجب وقالت:

- ما بك يا سهير!، وجهك أصفر وعيناك حمراوان.. ماذا ألم بك؟، أين نضارتك وصفائك يا حبيبتي!، هل أنت مريضة أم أن هناك ما تخفيه عني!.

حاولت أن أخفي ما يدور بخلدي، رسمت ابتسامة على شفتي وقلت:

- لا يا أمي، إنه مجرد صداع، سيزول بعد قليل بإذن الله، لكني محتاجة لبعض النوم والراحة فقط، وبعدها أستعيد نشاطي وحالتي الطبيعية.
- كما تشائين يا ابنتي، سأتركك ترتاحين.

عدت إلى سريري وأنا في شبه غيبوبة، أرخيت لدموعي العنان من جديد، ورحت أفكر كيف أتحمل الفراق، وكيف أعيش بدون صلاح!.. وتساءلت في قرارة نفسي "ألا يشعر صلاح بشعوري نحوه، أترى حبه قد خبا أمام سفره، لكني على يقين أنه يحبني، أنا واثقة من ذلك.. في السفر والبعد عني قد ينساني، لكن من الصعوبة أن أنساه".. وأخيراً، كطفل رضيع هدّه البكاء على غياب والدته.. أغمضتُ عيني على قلق مشروع وغبت عن الوعي في سبات نوم عميق.

***

صلاح

لم أنم تلك الليلة، راحت الذكرى تنغل في شراييني وكأن عقارب تأكل جسدي، صباحاً قابلت سهير وأحببت التجول معها.. كان الفصل خريفياً والضباب يغزو المكان، ركبنا حافلة وقصدنا رام الله، قرب منتزه يتوسط المدينة جلسنا قرب نافورة ماء زادت المنظر جمالاً، عكست على صفحتها مجموعة من الغيوم البيضاء والسوداء.. فجأة خيّم صمت كئيب علينا، شعرتُ أن أشباحاً حطت علينا من السماء لتنسينا عالم الجمال، وتتركنا في وحدة كئيبة، وكلانا مغروس في تفكير مركزه نشوة الحب وقطر دائرته الفراق المنتظر.. وكل يقول في نفسه "إن الموت أرحم لي من الفراق".. غادرنا المكان وتمشينا في شارع جانبي.. هطلت الأمطار فجأة بغزارة، اقتربتُ وسهير من أحد المحلات التجارية ووقفنا على الرصيف نحتمي من المطر، ومرت دقائق قبل أن تمر سيارة تنقلنا إلى بيت زميل الدراسة الثانوية "وليد" الذي يقيم في رام الله.

كانت الأمطار الخريفية قد بللت ثياب سهير، فأسرع وليد وأحضر لها بشكيراً، ثم صنع لنا الشاي.. وفيما كنا نرتشف

الشاي الساخن، أشار بيده إلى الغرب حيث التلال والأرض المحتلة التي يغمرها الضباب وقال:

- الحب جميل.. لكن الأجمل أن يكون في الربوع الخضراء على تلك التلال.
- الحب لا وطن له.. وكوننا فقدنا الوطن فهذا لا يعني أن نفقد الحب أيضاً، كن متفائلاً دائماً يا وليد. قلت
- أتفاءل!، وهل هناك بصيص أمل أتفاءل به، كيف أتفاءل وقريتي هناك على مد البصر لا أستطيع الوصول إليها.. هناك قبر والدي الذي أفنى عمره وهو يحرث الأرض ويفلحها، قبل أن يقتله الصهاينة.. لقد دفنت قلبي هناك بين التلال مع جثة والدي، لكن "الله يُمهل ولا يهمل"..

قاطعته: أنا آسف يا وليد على ما سبّبته لك من إثارة المشاعر والذكريات الحزينة.

لم يجب وليد.. قمت نحو النافذة، كان المطر قد توقف رغم أن الغيوم ما زالت تحجب السماء، استأذنت من وليد وغادرت مع سهير باتجاه القدس.

في طريق عودتنا، شعرتُ أن عيني مشدودة باتجاه الغرب، وأنا أرى الأسلاك الشائكة تفصل بين شرق الوطن وغربه المسلوب، إذ كثيراً ما حدّثني والدي عن قرى ومدن فلسطين

المحتلة، وما زال يذكر أشجار البرتقال والتفاح والزيتون وكروم العنب في أرضهم المعطاء.. أما اليوم فلا شيء غير الحسرات بعد أن استولى جيش الاحتلال على هذه الأرض وهجّر أهل البلاد من ديارهم.

في القدس وقبل أن تغادر سهير إلى بيتها، كسرتُ حاجز صمتهما الحزين وذكّرتها بموعد سفري، فنظرت إلي وقالت:

- لا أحتمل أن أرى طائرة تأخذك بعيداً عني، إني أموت موتاً بطيئاً كلما تراءى لي منظر الإقلاع.

قالت ذلك ودمعت عيناها.. رجوتها أن لا تتخلى عني يوم سفري، وطلبتُ منها أن تلقاني في المطار.. وعلى مضض وهي تمسح دموعها وافقت على طلبي.

في البيت وشريط من الذكريات يلاحقني، شعرتُ أني أودّع أحلامي وأتذكر الماضي بتفاصيله.. وفيما كانت والدتي تعد لي حقيبة السفر، سرحتُ بذاكرتي ورحت أسترجع لقائي الأول مع سهير، ومدرسة البنات التي سطرتُ أمام أسوارها أحلى ذكرياتي.. كنت أتمزق ألماً وأنا أفكر بأني لن أر سهير بعد ذلك اليوم، ولن أنعم بابتسامة أمي وطيبة قلبها، وجلست

أجـول بنظراتــي وكــأني أودع الأثــاث فتــودعني الجـدران والنوافذ والستائر.

في مطار قلنديا رحت أبحث بنظراتي في وجوه المودعين لعلــي أجـد ضــالتي بيـنهم، فاجــأني النـداء الأخيـر بتوجــه المسافرين للداخل لاقتراب موعد إقلاع الطائرة، فأخذت أودع الأهل على عجل وفـي عينـيّ صـورة واحدة لكل منهم.. هـي صورة سهير.

قبل أن أهم بـالولوج إلـى قاعـة المسـافرين، شـاهدتها واقفـة قرب الباب ترقبني بنظراتها، ركضت نحوها، وما أن شاهدت الدموع في عينيها حتى انفجرت باكياً أنا الآخر، وكدت أتأخر عن السفر لولا أن دفعني والدي نحو الباب دفعاً قبل أن أصـل سهير.

***

سهير

منذ أن رحل صلاح ومنظر الإقلاع يراودني ويقض مضاجعي، وما زلت أذكر ذلك اليوم جيداً، فقد شعرتُ أن تلك اللحظة هي أتعس لحظات حياتي، أحسست بساقيّ يخذلاني ولا تساعداني على الوقوف، فجلستُ على مقعد قريب، وأرخيت لدموعي العنان وأنا أراه من خلال غشاوة مظلمة يصعد إلى الطائرة، فتصعد روحي معه.

أشهر ستة مضت ولم أسمع أخباره.. أفقت من نومي ذات صباح وأنا أصرخ، فقد رأيت كما يرى النائم طيوراً تنهش جسدي حتى أدمته، وصلاح ينظر نحوي وكأنه لا يعرفني، وعندما استنجدت به، أدار وجهه ومشى غير آبه لصرخاتي المذعورة.

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، غمرت وجهي بالوسادة ورحت أحدّث نفسي "كيف طاوعتُ عقلي وتركته يذهب بعيداً عني!، حتى الرسائل بخل عليّ بها، أترى يعرف مقدار حبي وعذابي!.. آه منك يا حبيبي كيف طاوعك قلبك وقيّدتني بالوحدة والألم!".

قطعت والدتي حبل أفكاري، وقالت بأنها ستقوم بزيارة إلى أخيها أبي حامد في أريحا، وأوصتني أن أحرص على نفسها وعلى البيت حتى تعود في المساء، وما أن غادرت البيت حتى تسللتُ إلى البقالة القريبة وسألت صاحبها عن البريد، إذ كثيراً ما كنت أسأله عن رسالة ستأتيني من بلاد بعيدة على أن لا يسلمها لأحد غيري.. فابتسم ومدّ يده إلى جيبه وناولني رسالة قائلاً:

- منذ يومين وأنا أنتظر رؤيتك لأعطيك الرسالة.

شعرتُ أن لي أجنحة وأرغب بالطيران، شكرت صاحب البقالة وودت لو أفض الرسالة أمامه، لكني تراجعت وأخفيتها في حقيبة يدي، ورحت أقفز عائدة إلى البيت معتقدة أن كل الأعين تراقبني.

أغلقتُ الباب خلفي، درت جذلة أطوف رحاب البيت فرحة، تمنيت لو تراني أمي الآن وأنا أطير من السعادة.. فضضت الرسالة بيدين مرتجفتين، ثم ضممتها إلى صدري ثانية وقبلتها، وبدأت بالقراءة:

"عزيزتي سهير"

حدثتُ نفسي معاتبة، كيف تقول عزيزتي!، لقد تعودت أن تقول حبيبتي.. كيف لا تقولها الآن بعد غياب يُعد بالسنوات لا بالأشهر وأنا أنتظر رسالتك بفارغ الصبر.

"اعلمي أن الدنيا أظلمت منذ أن صعدت سلم الطائرة"..

عادت الذكرى تهزني عندما تراءى لي منظر إقلاع الطائرة التي أقلته إلى بلاد بعيدة عن ناظري، انحدرت دمعة من عيني فتركتها تنساب على وجنتي، وتابعت القراءة:

" تأكدي يا حبيبتي..".

تمتمتُ: ما أحلاها منك يا حبيبي..

"إن شمس كوني لن تبزغ طالما وأنا بعيد عنكِ، أنتِ لي كل شيء".

همست: وأنت لي يا حبيبي كل شيء، تعال وانظر بعينيك ما أنا فيه، إن فراقك حطمني.

"ليتني بقيت في القدس لأمتّع عينيّ بالنظر إليك وإلى الوطن الحبيب.. فالأرض التي تعودنا أن نشاهدها كل صباح في الغرب، لهي أجمل بقاع الدنيا".

ضممتُ الرسالة إلى صدري، ورأيت صلاح يملأ الكون حولي، ثم عدت لقراءتها ثانية وثالثة، وحين فاض بي الشوق

تناولت القلم وكتبت له رسالة طويلة بللتها بدموع الفراق والأسى، وأودعتها البريد المستعجل.

***

كثيراً ما كانت والدتي تزور شقيقها أبي حامد في أريحا، تساعده وترتب حاجياته، خاصة بعد أن توفيت زوجته منذ أكثر من عشر سنوات، مخلّفة له وحيدها "حامد" الذي جاوز الثانية والعشرين من عمره بقليل.. وفي زيارتها الأخيرة طلبت مني أن أرافقها إلى بيت شقيقها، وفيما كنت أعد الغداء في المطبخ قبل عودتنا إلى القدس، سمعتها تقول لخالي أبي حامد بأنها ترغب أن ترى حامد عريساً وتفرح به قبل أن تغادر الدنيا.. وكأن أبا حامد عرف ما يجول في صدرها فسارع يقول "فيما لو نوى حامد على الزواج، فلن يكون له عروساً أفضل من سهير".

تلعثمت والدتي عندما سمعت ما كانت تتمناه، وابتسمت قائلة: "إنه شرف كبير لنا يا أخي".. وقبل أن نغادر البيت، نصحت حامد بالزواج لتفرح به، لكنه أعتذر قائلاً:

- لم أفكر في هذا الموضوع يا عمتي.
- بل فكّر يا بني، ووالدك سينتقي لك عروساً جميلة.

قالت ذلك وطبعت على وجنته قبلة، ثم دعتني للعودة إلى القدس.

***

تجاهلتُ ما قالته أمي لحامد ووالده، ورحت بفارغ الصبر أنتظر رسالة من صلاح لعلها تملأ فراغي ووحدتي، لكن رسالة واحدة لم تصل، بدأت أتذمّر من أي عمل في البيت وأغلق الباب على نفسي لساعات طويلة، وحين أغادر البيت ألجأ لصديقتي "نوال" أشكو لها همومي.. وعندما لاحظت والدتي تصرفاتي، حاولت بشتى الطرق أن تفهم سبب معاناتي، لكنها لم تفلح، أما في المرة الأخيرة فقد احتضنتني وقالت: يا ابنتي لا تقنطي من رحمة الله، فغداً أو بعد غد سيأتي أحدهم ويطرق الباب، لا تفكري كثيراً يا ابنتي.

فوجئتُ وذهلت بما سمعت، قلت:

- ماذا تقولين يا أمي؟، أنا لا أفكر بالزواج.
- وهل هناك فتاة بمثل عمرك وجمالك لا تفكر في الزواج يا ابنتي!، إن حامد ابن خالك شاب طيب، ووظيفته تؤهله للزواج..
- ما هذا الكلام يا أمي؟. قاطعتها وأضفت، ماذا تقولين! أنا لم أفكر بالزواج أبداً.

- كل بنت تتمنى الزواج والسترة يا ابنتي.. فما بالك ترفضين!.

امتعضتُ وقلت: لا أريد سماع هذا الموضوع ثانية يا أمي. وانسحبت إلى غرفتي بعد أن اغرورقت عيناي بالدموع.

***

مساء ذات يوم دق أبو حامد باب بيتنا، لم تستطع أمي أن تخفي فرحتها، سألته عن ولده حامد، فقال بأنه قام بزيارة صديق له وسيأتي بعد قليل.. ثم ولجت غرفتي وأنا ممددة على السرير وقالت: هيا يا ابنتي انهضي وأرتدي أجمل ثيابك، وأزيلي الغمامة عن وجهك.. إن الدنيا ابتسمت لك هذا اليوم يا سهير.

قالت ذلك ولم تعطني مجالاً للتفكير، إذ سرعان ما توجهت إلى الخزانة وفتحتها قائلة: "لا تلبسي هذا الفستان الأصفر، ارتدي هذا الليلكي، إنه الأجمل، هيا يا سهير انهضي".. وأخذت تحثني على النهوض.. وقبل أن أستسلم لأوامرها تناولت الفستان، وناولتني إياه لأرتديه، ثم تناولت المشط وساعدتني على تصفيف شعري، كما حرصت أن تبرز لي خصلة من الشعر تركتها تتدلى على جبيني.. ثم خرجت من

غرفتي ترحب بأخيها، وتعتذر له لتأخرها عنه إذ تركته يجلس وحيداً لدقائق معدودة.

شعرتُ أني مقيدة أمام إصرار والدتي وأوامرها، وفيما كان جرس الباب يرن ثانية صرخت والدتي تناديني لأفتح الباب، لكني تقاعست ولم أرد، كنت أعاني صراعاً نفسياً عميقاً في حجرتي.. ماذا أقول وبأية طريقة أرفض وأصد هذا الزواج؟.

تواصل رنين الجرس، قامت والدتي على مضض وفتحت الباب، وإذ بوالدي "يوسف" يقف أمامها، وعندما شاهدها منفعلة قال:

- لماذا تأخرت عن فتح الباب؟
- كنت مشغولة.. وليس من عادتك أن تدق الجرس وأنت تملك مفتاحاً للباب..
- نسيته في العمل..

وقبل أن يلج البيت اقتربت منه وهمست في أذنه: "جاء أخي أبو حامد يطلب سهير لابنه حامد".. فامتعض وجهه وتابع سيره إلى الداخل.

تصـافح الـرجلان، وجلسـا يتـداولان الحـديث إلـى أن دق جرس الباب ثانية، فرقص قلب أمي معلناً أن حامد عند الباب هذه المرة.. فقالت لي:

- افتحي الباب يا سهير.

ترددتُ وألقيت نظرة على الجالسين، وقمت أفتح الباب عابسة، كان حامد يقف قرب الباب، نظرت إليه وكأني أراه للمرة الأولى، حدّقت في وجهه وحدّثت نفسي "أهذا هو حامد.. يا لقباحته، إنه بشع جداً.. كثيراً ما رأيته سابقاً وكثيراً ما تحدثت معه.. لكني لم أره أبشع من هذه المرة".. وأمام هذه الانفعالات نسيت أن أقول له تفضل، لكنه ولج البيت، وقبل أن يجلس أسرعتُ إلى داخل المطبخ.

بعد أن شرب خالي أبو حامد القهوة، عدّل من جلسته وقال: "يسعدني يا صهري أن أتقرب منك، إنه لمن دواعي الشرف أن أطلب يد ابنتك سهير لولدي حامد"..

قالت أمي على الفور: وهل سنجد أفضل من حامد عريساً لسهير!.

نظر والدي إلى أمي نظرة عتاب وقال: حامد ابننا، وسهير ابنتنا، والرأي رأيهما.. ولا بد من استشارة صاحبة الشأن.

قام واتجه نحو المطبخ، كنت واقفة أمسح ما علق في عيني من دموع.. قال: سهير يا ابنتي، لا شك أن والدتك أخبرتك بأن خالك جاء يطلبك لولده حامد.. فما رأيك؟

تمنيت لو أستطيع أن أقول لوالدي "لا أريده"، لكني صمتت ولم أجب، ثم قلت وأنا أخفي وجهي بين راحتي "كما تريد يا أبي".. ورحتُ أبكي بكل جوارحي، وكدت أسقط على الأرض، فجأة تقدم والدي مني احتضنني ومسح دموعي فقلت: أنا أحبك يا والدي، ولا أريد الزواج الآن، أحب أن أبقى جانبك.

قبلني والدي من جبيني وعاد إلى المجلس، فاستعجله أبو حامد:

- خيراً إن شاء الله!.
- كل خير، لكني أعتقد أن في العجلة الندامة.. اصبر يوماً أو يومين حتى تقرر سهير، وسأبعث لك بالجواب مع والدتها.

استأذن أبو حامد وأنصرف برفقة ولده حامد، وقبل أن يخطو ثلاث خطوات خارج المنزل، ثارت والدتي وقالت لوالدي بغضب: إذا كانت البنت موافقة، وحامد لا يعيبه شيئاً.. فما الذي دعاك لتأجيل الموضوع؟.

وقبل أن يجيب، انطلقتُ مسرعة خارج المطبخ وقلت بصوت مرتفع لوالدتي: لا أريد الزواج، أنا أرغب بمواصلة تعليمي الجامعي.

فغرت والدتي فاها وتسمرت في مكانها، بينما ولج والدي غرفته ولم ينطق بكلمة.

***

دقت الساعة الثانية عشر معلنة منتصف الليل قبل أن يعود والدي إلى البيت، إذ كثيراً ما كان يغادر البيت مساء ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل.. فولجتُ غرفتي لائذة من وجه أمي التي أخذت تتذمر وتصب جام غضبها عليّ منذ أن رفضتُ حامد.

تهادى إلى أسماعي أصوات حركية في البيت أشبه بأقدام تجيء وتروح.. فقمت عن سريري أستطلع الأمر، فجأة ولجت والدتي غرفتي ووقفت قرب الباب قائلة "ألم يعد والدك بعد!

- لا، لم يعد.
- سأنتظره حتى يعود، وأعرف ما الذي يدعوه للسهر خارج البيت. قالت ذلك وخرجت بعد أن أقفلت الباب خلفها.

لم أنم تلك الليلة، أغلقت الباب من الداخل، ثم وقفت أراقب والدتي من ثقب المفتاح.. جلست أمي على مقعد، ثم قامت وتوجهت إلى غرفتها من جديد، صفقت الباب خلفها، وأطفأت النور.

بعد أن تأكدتُ أن والدتي رقدت في فراشها، أضأت النور وعدت أتصفح دفتر ذكرياتي، تناولت القلم، وبدأت أخط رسالة شوق إلى صلاح، ولم أنس أن أخبره فيها حكاية ابن خالي حامد، وكيف رفضتُ طلبه، وأن والدتي ما زالت تلح علي وتقنعني بالزواج منه والعدول عن رأيي.

دقت الساعة الواحدة، وتجاوزت الثانية بقليل قبل أن يُفتح الباب الخارجي ويظهر والدي قربه، فتحتُ باب غرفتي وأسرعت نحوه، بادرني بقوله: ألم تنامين بعد يا سهير!

أشرتُ عليه بالصمت، وهمست في أذنه بأن والدتي متوترة الأعصاب، ومنزعجة على غيابه، وقبل أن أتابع ظهرت والدتي تقف قرب الباب وتقول "والله عال، كل ليلة سهرة حتى الصباح".

قطع والدي استرسالها وقال لها مهدئاً: اهدئي وإلا أفسدتِ أحلامنا وأحلام الجيران.

- سأفسد أحلام العالم كله، كما أفسدت أحلامي، أين كنت ومع من..؟. صرخت أمي في وجهه
- عيب يا امرأة هذا الكلام أمام ابنتك.
- أمام ابنتي.. لو كانت ابنتي حقاً لأطاعت أوامري وتزوجت ابن خالها منذ أشهر.

انسحبتُ إلى غرفتي، وصوت والدتي يصم أذني، ولم يخفت إلا بعد أن وعدها والدي بأن لا يعيد الكرة ثانية ولن يسهر بعد اليوم، وفي الحال ولجا حجرة نومهما، وأغلقا الباب خلفهما.

***

في ليلة تالية، وبينما كنت أحاور والدتي وأدافع عن موقف أبي، تعالا إلى أسماعنا في الليل الصامت صوت انفجارين هزا المكان، وتلا ذلك أصوات طلقات نارية بعيدة.

تثاءبتُ وقمت متثاقلة إلى سريري، ولم تمض ساعة زمن حتى سمعت حركة الباب الخارجي يُفتح ويدخل والدي إلى غرفة جانبية، وقبل أن يغلق الباب أسرعت نحوه.. كان تعباً، ولاحظت أن العرق يتفصّد من جبينه رغم برودة الليل.. حاول أن يصرفني بلطف، لكني أصريت على مساعدته في

خلع ملابسه، كان يترنح وكاد يسقط على الأرض، وحين شاهدت الدماء تغطي ذراعه الأيسر صرخت: ما بك يا والدي، وما هذه الدماء!، هل أنت جريح؟.

لم يجب، تحامل على نفسه وجلس على السرير، بينما ولجت والدتي مسرعة تقول: ما الذي سمعته!، هل أنت جريح حقاً؟.

استرخى والدي على الفراش بصمت، وحرص على أن لا تتسرب أخبار إصابته إلى أحد غيري ووالدتي، مما أثار الشكوك حوله، خاصة وأنه لم يفصح عن السبب المباشر لإصابته، وفيما كنت وأمي نضمد له ذراعه أصرت أمي على معرفة سبب الطلقة النارية التي أصابته، فقال على مضض بأنها أثر مشاجرة بين زملائه عندما تدخل لفض النزاع بينهم.. لكن والدتي لم تقتنع ولم تصدق أية كلمة مما قاله.

أما أنا فأيقنت أن وراء هذا الجرح سراً خطيراً، خاصة وأن والدي حرص على أن لا تتسرب هذه الأخبار خارج بيته، فأخذت أتقرب منه وأحاول معرفة السر الذي يخفيه.

***

صباح اليوم التالي، وأثناء زيارتي لزميلتي نوال، شاهدت في طريقي مجموعات من رجال الشرطة ينتشرون في الشوارع بعد أن أقاموا الحواجز، كانوا يوقفون المارة ويفتشون السيارات.

لم أبدِ أي اهتمام لهم، لكن نوال أخبرتني بأنهم يبحثون عن رجال المقاومة الذين قاموا بعمليات التفجير في الليلة الماضية داخل الأراضي المحتلة.

فجأة اعترتني رجفة وشعرت بقشعريرة، فاستأذنت من نوال وعدت مسرعة إلى البيت.. كان والدي عاكفاً على مراجعة أوراقه وبيده رسالة، وما أن شاهدني حتى وضعها في جيبه وتأهب للخروج من البيت.. قلت: كيف تخرج من البيت وأنت ما زلت جريحاً!؟.

قال: لا تقولي ذلك يا سهير فأنا لم أعد جريحاً، انظري.. وحاول أن يحرك يده، لكنه فشل، وعندما أعاد الكرة، حركها بصعوبة بالغة، فقلت: إن رجال الشرطة يملؤون الشوارع، يوقفون المارة، ويدققون في بطاقاتهم الشخصية.

انفعل والدي فجأة، وتغيرت ملامح وجهه، ومد يده اليمنى يحاول بها التعبير عن كلام أراد النطق به، لكنه استعاد رباطة جأشه، وبدا كأن شيئاً لا يهمه، أضفت:

- إنهم يبحثون عن رجال المقاومة.

قال بغير اكتراث: ربما. ثم قام يتمشى داخل الغرفة وأنا أرقبه عن كثب.. أضاف: في أي مكان يقفون يا سهير؟

- في كل مكان يا أبي.

صمت ولم يجب، وأخذ ينظر من النافذة، فأضفت:

- أرجوك يا بابا لا تخرج من البيت، فأنا أعرف أنهم يبحثون عنك.
- ماذا تقولين؟!. قال بسرعة.

شعرتُ أني أصبت الهدف، فعدت أؤكد ما حدست به منذ البداية: "هذا الواقع يا أبي، فأنا أعرف أنك تعمل مع رجال المقاومة".

لم ينفِ والدي ما قلته، وأضاف قائلاً "تعلمين بلا شك أن والدتك مريضة، وإذا عرفت ذلك سيزيد مرضها، لذا أريدك أن تحفظي السر وتخفيه عنها"، وأخذ ينظر من النافذة المطلة على الشارع.. قلت أستحثه على الخروج من صمته الذي ركن إليه: هل أنت بحاجة إلى شيء يا أبي؟

قال على الفور: لا، لا شيء، ثم أضاف بعد تردد: اسمعي يا سهير.. ومد يده إلى جيبه، لكنه أعادها فارغة وقال:

- لا شيء، لا شيء.

ألححتُ عليه: أخبرني يا أبي.. أنت بالتأكيد بحاجة إلى مساعدة.

- اسمعي يا سهير. ومد يده إلى جيبه ثانية، أخرج مظروفاً وناولني إياه وأضاف: أريد أن توصلي هذا المغلف إلى هذا العنوان. "وأشار بإصبعه إلى ما كان مكتوباً على المغلف"، ولكن بسرعة.
- أنا مستعدة يا والدي. قلت بلهفة.
- اسمعي يا ابنتي، أنا أعتمد على الله ثم عليك، فهذا الرجل الذي تقصدين في مثل عمري، لكنه يبدو كشيخ يحمل مسبحة بيضاء اللون ويُكنى "أبو محمود"، وإياك أن تعطي هذه الرسالة لأحد غيره. ونصحني أن أتجنب الطرق التي تقف فيها الشرطة، كما ألح عليّ بالإسراع قبل أن يغادر الرجل بيته.

****

يوسف

بعد أن غادرت ابنتي سهير البيت، عدت إلى النافذة أرقب المارة، ثم عدت وجلست على السرير أرتب أوراقي، أخفيت بعضها وأحرقت بعضها الآخر، ثم قمت وفتحت صندوقاً، تناولت منه مسدساً وتأكدت أنه محشو بالرصاص، أخفيته تحت المقعد وجلست أنتظر أوبة ابنتي.

فُتح الباب فجأة وظهرت زوجتي تسأل:

- ألم تعد سهير بعد؟

للوهلة الأولى تبادر إلى ذهني أن زوجتي تعلم أين ذهبت سهير، لكني استدركت أنها لم ترها عندما عادت بعد زيارتها لزميلتها نوال، فقلت: لا، لم تعد.

- لقد تأخرت. قالت ذلك وتقدمت إلى الخزانة وفتحتها، وأضافت: الدنيا مقلوبة في الخارج.

لم أعر لحديثها اهتماماً، وكأن الأمور لا تهمني، تناولت صحيفة كانت قد أحضرتها سهير صباحاً وأخذت أقلب صفحاتها.. لكني لم أجد أي خبر عن موضوع الانفجارات.. أضافت زوجتي:

- لقد تأخرت سهير، والشرطة تملأ الشوارع.
- خيراً إن شاء الله، ما الأمر؟. قلت متجاهلا ما يحدث.
- لا أدري.. لكنهم يقولون أنهم يبحثون عن رجال المقاومة.

أجابت بغير اكتراث.

مرت أكثر من ساعة وأنا أعيش في قلق بانتظار عودة سهير، بينما انشغلت زوجتي بترتيب أثاث البيت وتنظيفه.

فجأة دق جرس الباب.. أخذتُ أرقب الطارق ويدي تمتد نحو المسدس، بينما أسرعت زوجتي لتفتح الباب، قالت:

- لماذا تأخرت يا سهير؟

نظرتُ نحو سهير نافياً بيدي عن بعد أني قلت لوالدتها شيئاً، ففهمت سهير وأجابت: لقد نسيت نفسي مع نوال يا ماما.

وعندما اقتربت مني أضافت بهمس "لقد وصلت الأمانة يا بابا".

ابتسمتُ لها وطبعت على جبينها قبلة فرح وامتنان، وعندما انهمكت زوجتي في عملها قلت: ألم يقل لك شيئاً يا سهير؟

أجابت: بلى يا والدي، قال أخبري والدك بأن العصافير ما زالت تغرد على الأشجار.

فرحتي كانت كبيرة عندما علمت أن رجال المقاومة ما زالوا أحراراً، وأن أحداً منهم لم يقع في الأسر، أو في أيدي الشرطة.

***

مر أسبوعان والشرطة تنتشر في الشوارع وتقيم الحواجز، وسهير البريد المتنقل بيني وبين أبي محمود، حتى عادت يوماً لاهثة تقول: الشرطة تفتش البيوت.

- هل أنتِ متأكدة يا سهير؟.
- أجل يا أبي فقد رأيتهم قرب موقف الباصات.

همستُ في قرارة نفسي "ما زالت الفرصة سانحة لنا، لكن لا بد من عمل، أجل لابد من التحرك سريعاً".

تناولتُ قلماً وكتبت رسالة قصيرة، وطلبت من سهير أن توصلها إلى أبي محمود، وأوصيتها أن تعود بأقصى سرعة.. لكن سهير تأخرت هذه المرة، فصممت أن أذهب بنفسي إلى المكان الذي بعثتها إليه لأقابل أبا محمود.. قبل أن أبتعد عن البيت عرجت على البقالة القريبة أسأل عن البريد، فناولني الأخير ثلاث رسائل، فعدت إلى البيت أتصفحها وانتظر سهير.

فتحتُ الرسالة الأولى ثم الثانية، وتوقفت عند الثالثة، نظرتُ إليها ملياً وحدثتُ نفسي: المرسل صلاح، من استراليا!.. تساءلت ثانية: من لي في استراليا بهذا الاسم!.. أعدت النظر إلى المرسل إليه لعلي أكون مخطئاً فأعيد الرسالة إلى صاحب البقالة، لكني توقفت عند اسم سهير.. وقبل أن يتشعب تفكيري وأظن بها الظنون.. فضضت الرسالة بسرعة، وأخذت أقرأ:

" عزيزتي سهير

يسعدني أن أكتب إليك بعد أن شفيت من مرضي الذي دام أكثر من شهرين.. فأرجو أن تصفحي عني لتأخري عن الكتابة.

لقد فوجئت بابن خالك هذا، ولم أكن أتوقعه في حياتي، تأكدي يا عزيزتي أني سأبقى عند حسن ظنك، وسأكون قريباً منك في أقرب وقت.

كثيراً ما أجلس وحدي وأسرح عبر أفكاري إلى سور القدس والقرى الممتدة نحو الغرب أمامه، والى جبل الزيتون حيث كنا نلتقي، ولن أنسى يوم أن رافقتك إلى أريحا لزيارة خالك.. كما لن أنسى رفقتك لي في ذلك اليوم الماطر حيث عرجنا إلى بيت صديقي "وليد" في رام الله.. يراودني الحنين

إلى تلك الأماكن وأشتاق إلى كامل تراب الوطن كثيراً، فروحي ما زالت معلقة هناك، وسأعود قريباً بإذن الله.

بلغي سلامي إلى والدك العزيز الذي شرفني بموقفه معك ورفض الزواج من ابن خالك".

تناهى إلى سمعي صوت زوجتي وقطع ما بدأت به وهي تقول:

- لا أدري ما الذي يدعو سهير للخروج من البيت كل ساعة، لن أدعها تخرج بعد اليوم.

تابعت القراءة وكأني لم أسمع ما قالت، إلا أن صوت جرس الباب بعثر أفكاري، فجمعت كل ما كان بين يدي وأخفيته تحت فرشة السرير، ونهضت سريعاً أنتظر القادم.

فتحت زوجتي الباب وقالت:

- لن أسمح لك بعد اليوم بالخروج من البيت. وجلست على أريكة تحيك قطعة صوف بين يديها.

نظرتُ إلى سهير أستعلم عما حصل معها، فهزت رأسها نافية أنها وجدت الشخص المطلوب، لكنها لم تستطع أن تجيب غير أن تهز رأسها بالنفي، فانسحبت إلى غرفتي وتبعتني سهير ووالدتها تختلس النظرات إلينا، وتخفي كل ما

استطاعت معرفته، وما أن أغلقت باب غرفتي حتى قالت سهير: لم أجده يا أبي.

- ماذا تقولين!، كيف لم تجديه؟.
- لم أجده، لكني شاهدت أحد أفراد الشرطة يقف في الممر المؤدي إلى بيته، وعندما حاولت المرور منعني.
- لا شك أن في الأمر شيئاً خطيراً، ولا بد من العمل سريعاً.

كان جل همي معرفة ما يدور حولي، والاتصال بأبي محمود، فقمت أتمشى نحو النافذة، وفيما كنت أرقب الشارع والمارة، كانت سهير ترقب الأوراق البارزة من تحت فرشة السرير، فتقدمت منها وسحبت إحدى الأوراق، كنت أرقبها بطرف عيني وهي تتراجع وتكاد تسقط أرضاً مذعورة.. ورسالة صلاح بين يديها، قلت أطمئنها:

- لا تخافي يا سهير، أخبريني يا ابنتي مَن يكون صلاح؟.

لم تُجب، تقدمت نحوها وضممتها إلى صدري وأضفت: لا تخافي يا ابنتي، اعتبريني صديقاً وقولي كل شيء بصراحة.

لم تجرؤ النظر إلى وجهي، فعدت من جديد أطمئنها، وعليها أن تفتح قلبها لي.. شعرت سهير أنها بحاجة لمن

يستمع إليها للمرة الأولى، هدأت وبدأت تقص عليّ قصة الحب الذي يربطها بصلاح قبل أن يسافر إلى أستراليا.. وقبل أن تنتهي اندفعت والدتها داخل الغرفة تقول: "أهذا كل شيء!، ومن أجله رفضت الزواج من حامد!، وأنت يا يوسف تكذب عليّ وتقول أنك تلعب الورق مع أصحابك وأنت تلعب بالرصاص". وجلست على السرير تنتحب.. وقبل أن أتقدم وأهدئها، دق جرس الباب ثانية، فتحت سهير الباب وفوجئت برجال الشرطة يقفون أمامها.

أسرعتُ وأخفيت الأوراق والمسدس تحت ثياب زوجتي قبل أن تقتحم الشرطة البيت، فجأة صرخت زوجتي بأعلى صوتها في وجوه الشرطة "ماذا تريدون منا، اتركونا بحالنا". لكن أحداً لم يستمع لها، تقدم اثنان من رجال الشرطة قيدوني بالأصفاد الحديدية وفتشوا البيت، وعندما لم يجدوا شيئاً اقتادوني مكبلاً معهم.

****

سهير

رغم صلابة أمي وقوتها، إلا أنها كانت ضعيفة وتعاني من مرضي الضغط والسكري، لهذا كان وقع الصدمة عليها رهيباً وموجعاً، فما أن اقتادوا أبي إلى السجن حتى أظلمت الدنيا في عينيها وأصيبت بجلطة فجائية، فأخفيتُ أغراض والدي، ونقلت والدتي إلى المستشفى.

في اليوم التالي جاء خالي لزيارة أمي في المستشفى، كما جاء ولده حامد.. وقبل أن يعودا إلى أريحا استوقفت حامد وصارحته أني أحترمه كأخ لي، وعلى عكس ما كنت أعتقد استكبر كلامي وقال بأن موضوع الزواج لم يفكر فيه أصلاً، وأن كل الحكاية رغبة متبادلة بين والده وعمته، وإنه ينظر لي كشقيقة فحسب.

شعرتُ براحه نفسية، وكأن كابوساً أزيح عن كاهلي، تعاهدنا على دوام الأخوة بيننا، وجلست أقص عليه حكايتي مع صلاح، ومعرفة والدي بالموضوع.

***

مساء أحد الأيام، وأثناء زيارتي لوالدتي في المستشفى برفقة حامد، خيل لي أني أرى صلاح يمر من أمام الغرفة

مسرعاً كطيف.. أسرعتُ نحوه، لم أصدق عيناي واعتقدت أني أعيش في عالم الخيال.. وعندما تأكدت منه، ألقيت برأسي على صدره وأنا أهيل الدموع.. سألته عن كيفية وصوله إلى المستشفى، قال إنه عاد من أستراليا صباح ذلك اليوم، وقبل أن يتوجه إلى بيت ذويه اتجه إلى بيتها، فلم يجد فيه أحداً.

اتجه إلى بقالة قريبة وسأل صاحبها عن صاحب البيت، فأبدى الأخير عدم معرفته بالأمر، لكن صلاح ألح عليه بالسؤال معرّفاً بنفسه بأنهم أقرباءه وأنه قادم من أستراليا، فابتسم صاحب البقالة وقال: إذن أنت صلاح.

أجاب: نعم أنا صلاح، كيف عرفت!.

قال: كثيراً ما كانت سهير تسأل عن رسائلك.

- إذن أخبرني أين هي؟
- إنها في مستشفى الطور ترافق والدتها المريضة.

أضاف صلاح بأنه أسرع إلى بيت ذويه، أودع حقائبه ثم أسرع نحو المستشفى وفي ذاكرته آلاف الأسئلة التي لا يعرف لها أجوبة.. في المستشفى أخذ يبحث بعينيه عن ضالته حتى شاهدها تجثو قرب سرير والدتها..

ما أن خرج حامد من داخل الغرفة حتى تسمّر في مكانه هو الآخر وهو يرقب المشهد، فتقدمتُ منه وقلت: هذا صلاح الذي حدثتك عنه.

قال: ألم تخبريني إنه في أستراليا؟.

أجاب صلاح: بلى كنت هناك، وقد وصلت صباح هذا اليوم. وقبل أن ينتهي من جملته شاهدنا الممرضة تخرج من غرفة الوالدة، فأسرعتُ نحوها استفسر عن حالة أمي، بدا على وجهها الشحوب ولم تجب.. أسرعتُ نحو أمي وفوجئت بأنها جثة هامدة مغطاة بشرشف أبيض.. صرختُ وألقيت بجسدي بين ذراعي صلاح ثانية ورحت أهيل الدموع من جديد.

***

بعد أن انتهت أيام العزاء، انتقلتُ إلى بيت خالي في أريحا حتى لا أبقى وحيدة، وبعد أكثر من ثلاثة أشهر فوجئت بوالدي يلج بيت خالي.. قال إنهم أفرجوا عنه، وعندما توجه إلى البيت وجده فارغاً، لكن صاحب البقالة أخبره بما حدث..

لم يمكث والدي طويلاً في بيت خالي، وعندما عدت معه إلى القدس كان يحمل على كاهله جبالاً مثقلة بالأحزان..

في البيت رويت لوالدي حكاية وحدتي وألمي وانتقالي إلى بيت خالي بعد أن توفيت والدتي، كما أخبرته عن صلاح وكيف تحمّل مصاريف المستشفى كاملة، فقال:

- لقد غمرنا صلاح بمعروفه، إني أرغب في دعوته والتعرف عليه عن كثب.

أيام قليلة مرت، قبل أن يدق صلاح جرس الباب، فتح والدي الباب وقال مُرحّباً: "اعتقد أنك السيد صلاح.. تفضل". وأضاف يخاطبني: "أعدي لنا الغداء يا سهير فبيني وبين صلاح حديث طويل".

****

أحلام الغد

صباح أحد الأيام، وبينما كان صلاح يهم بالخروج من البيت، ولجت والدته "أم صالح" غرفته، نظرت إليه وقالت مبتسمة:

- ما هذه الأناقة يا بني! ربي يحرسك من العين، إلى أين ذاهب يا صلاح؟

قال: سأقابل أحد الأصدقاء.

- وهل كل هذه الشياكة للأصحاب!.

وعندما انهمك بإصلاح ربطة عنقه أضافت:

- والله كبرت يا صلاح، أصبحت رجلاً بعد أن كنت تعذبني بشقاوتك وأنت صغير.. أما وقد أصبحت هادئاً كالملاك، فبودي أن أفرح بك وأرى أولادك قبل أن أرحل عن هذه الدنيا.

ابتسم صلاح وقال: لا تقولي هذا يا أمي، فأنت ستعيشين مائة عام وأكثر بإذن الله. وأضاف داخلاً في صلب الموضوع: وعلى كل حال، أريني همتك يا أمي..

ابتسمت له وقالت:

- ربنا يخليك يا صلاح.. والله باين عليك مش قليل يا ولد، ثم اقتربت منه وأضافت: سأفتح الموضوع لوالدك هذا المساء، وإن شاء الله يجيب اللي فيه الخير.
- ربي يخليك لنا يا أمي. قال صلاح وخرج من البيت.

للحظة بقيت والدته واقفة صامتة.. عادت ذكرى ولدها البكر صالح تهزها، فمنذ أن فُقد قبل عامين لم يره أحد.. تمنت أن يكون بينهم ليفرحوا به.. مسحت دمعتها وحدثت نفسها وهي تلج المطبخ "ربنا قادر على كل شيء، وقادر أن يعيده إلينا سالماً".

مع بداية عملها في تجهيز الغداء، سرحت بأفكارها تلاحق صلاح، وفي ذاكرتها ألحقت به بنات الأقارب والجيران لتختار عروساً له، ولسان حالها يقول إن اختيارها سيكون لأجمل عروس.. نعم أجملهن خُلقاً وخَلقاً.. استعادت في ذاكرتها صور معظم فتيات العائلة والجارات، وتساءلت في قرارة نفسها.. "من هي الأصلح!، ليلى ابنة عمته.. لا، إنها قصيرة.. إذن سميحة بنت الجيران.. لا، إن أمها قوية ولسانها طويل.. آمال بنت أم أحمد.. لا إنها لكعة بعض الشيء.. ما الأمر، هل فقدت البنات من هذه الدنيا، آه، وجدتها، إنها سعاد

بنت صديقتي فتحية.. لكنها لا تعرف شيئاً في شؤون البيت، إنها ليست ست بيت، وزيادة على ذلك فهي ليست جميلة.. إنها لا تليق بابني.. إذن مَن؟.. آه لقد نسيت ابنة عمه، إنها أحق البنات به، وهي جميلة ومؤدبه وست بيت".

تنفست بارتياح، وأخذت تسرع في إعداد الطعام، وحال نفسها يقول: "غداً ستأتي زوجة ابني وتساعدني في أعمال البيت، وتملي علي وحدتي.. إن "منى" فتاة مؤدبة، وستكون مثل ابنتي".

انبسطت أساريرها ثانية، وكاد قلبها يقفز فرحاً، ومرت الساعات قبل أن يعود أبو صالح إلى البيت، ولج إلى غرفته يبدل ثيابه، ويسأل أولاده الصغار: "أين أمكم؟!"، ثم بصوت أعلى "يا أم صالح، أين أنت؟".

مرت لحظات قبل أن تجيب: أنا قادمة. وأضافت ممازحة وهي تنظر إليه: ما بالك متعباً وتلهث!.

- أسرعي وأعدي الطعام، أكاد أموت جوعاً.

- إيه يا أبو صالح، لقد أصبحت تتعب كثيراً وتجوع كثيراً.. أصبحت عجوزاً.

نظر نحوها وقال: عجوزاً!، لا تقولي ذلك يا أم صالح "وأضاف ممازحا": أنا لست عجوزاً، وفي استطاعتي أن أتزوج من جديد.

ابتسمت له ثانية وقالت وهي تقترب منه وتجلس قبالته: لا تكابر يا أبو صالح، لقد أصبحت عجوزاً، والآن جاء دور غيرك.. لقد أخذت نصيبك من الدنيا، وأسعَ الآن لغيرك.

- من تقصدين بغيري؟
- وهل هناك غيره؟، إنه ابننا صلاح.. لقد أصبح رجلاً ويجب أن نفرح به، ونقدم واجبنا نحوه.. نزوّجه لنرى أولاده في حياتنا.
- في الواقع، لقد فكرت في هذا الموضوع أكثر من مرة، لكني أعتقد أن صلاح سيرفض البت فيه.
- من قال لك هذا!، إنا جسست نبضه فوجدته لا يمانع.
- آه ما ألعنكن يا جنس حواء.. دائماً أنتن البادئات، على كل حال لا مانع عندي، لكن من ستكون صاحبة النصيب؟
- وهل يوجد غيرها؟، منى ابنة أخيك.. إنهما لائقان لبعضهما البعض.

- آه ما أخبثك يا أم صالح، حتى العروس اخترتِها.. "ثم تابع كلامه آمراً": قومي الآن وهاتي الطعام، وبعده نكمل الحديث.

***

بعد عصر ذلك اليوم عاد صلاح، وفيما كان والده يتفحص صحيفة بين يديه، قامت أم صالح تعد لهما الشاي وترقبهما عن كثب، اقترب صلاح من والده وجلس قبالته قائلاً: قرأتُ الصحيفة كلها ولم أجد فيها ما يثير اهتمامي.. ماذا فيها يا والدي من جديد!.

ألقى والده بالصحيفة جانباً وقال:

- أصبحت الحالة سيئة يا صلاح.. وكما أعتقد فإن خطر الحرب يقترب، والله أعلم ما تخبئ لنا الأقدار.
- هذه سياسة يا والدي ومناورات على أعين الشعوب، أما الحرب فلن تقوم.
- ربما.. لكني اعتقد أن هناك ثواراً يعملون في الخفاء، وبسببهم ستنطلق شرارة الحرب فجأة.
- رغم اعتقادي أن كل العالم مفاجئات، إلا أني لا أعتقد نشوب الحرب قريباً، لأني لم أر أحداً ينوي القتال.

- بل الكثير يا بني، وعلى رأسهم رجال المقاومة الذين يشتعلون كالسراج الذي يضيء لنا الطريق.
- إني أسمع عن عملياتهم التي أقلقت جيش الاحتلال، لكني لا أرى لميّت حياة، والعرب لا ينوون القتال واسترداد الأرض، الأرض لا تعود إلا ببذل الأرواح والدماء.
- صحيح إن العرب نيام، لكن لا بد من صحوة لهم ليعرفوا أن الحق لا يموت ووراءه مطالب..

قطعت أم صالح حديثهما وقالت: ألا يوجد عندكما غير الحديث عن الحرب، يقطع الحرب وساعتها..

تنبّه أبو صالح إلى حديثها وقال:

- نسيت أن أخبرك يا صلاح بأن أمك وجدت لك عروساً.

غاص صلاح في صمته قبل أن يجيب، فأضاف والده: لقد أصبحت رجلاً يا صلاح، وتستطيع أن تتحمل المسؤولية.. وعلى رأي المثل "بارك الله في بيت وُلد منه بيتاً آخر".. أريد لك الزواج والراحة، وقد اختارت لك والدتك ابنة عمك "منى"، فما رأيك بها؟.

صمت صلاح قليلاً ثم قال:

- لكني لم أفكر بها كزوجة أبداً، أنا أحترمها كشقيقة لي، أما العروس فأنا لي رأي خاص بها.

ابتسم والده وقال: وكأنك تعرف واحدة غيرها؟.

صمت صلاح ثانية، بينما ارتسمت على وجه والده علامات طفيفة من الانزعاج وأضاف:

- أخبرني يا صلاح بصراحة، فأنت أصبحت رجلاً ولك رأي..
- أشكرك يا والدي على هذه المعاملة، وليت كل الآباء يتفهمون مشاعر أبنائهم مثلك.. لقد تعرفت على واحدة قبل أن أسافر إلى أستراليا، إنها فتاة مؤدبة وخلوقة، وما زالت تنتظر وعدي بالزواج منها منذ أن سافرت..

ظهرت أم صالح تحمل أكواباً من الشاي وقالت وهي تنظر إلى صلاح متجاهلة ما سمعته: ما رأيك يا صلاح ب منى ابنة عمك؟، إنها على ذوقي واختياري.

نظر صلاح إلى والده ولم يجب، فقال والده:

- لا يوجد نصيب يا أم صالح، أن قلبه مشغول بفتاة غيرها.
- ماذا تقول!، منى بنت حلال وحلوة.. وهي ابنة عمك يا صلاح.
- إن منى مثل أختي.. ولم أفكر بها كزوجة. قال صلاح

شعرت أم صالح بهزيمة ساحقة أمام جواب صلاح، فابتسمت وقالت: المهم أن تكون سعيداً يا بني.. ثم خاطبت والده: يا الله يا أبو صالح، خلينا نفرح به.

أجاب أبو صالح بصوت ضعيف: على بركة الله.

في اليوم التالي قام أبو صالح وزوجته مع صلاح بزيارة لبيت يوسف، وما أن شاهد أبو صالح سهير حتى قال لولده غامزاً: والله غلبتنا يا صلاح وأحسنت الاختيار.

أيام قليلة مرت، دعوا خلالها الأقارب، وفي حفلة عائلية تمت خطوبة صلاح على سهير.

***

في الأيام اللاحقة، لم تعد أم صالح ترى صلاح غير أوقات قصيرة، حيث كان يقضي معظم أوقاته قرب خطيبته استعداداً لزواجهما.. وفي نفس الوقت كانت الأخبار تتوارد عن حشود للجيوش العربية قرب حدود الأرض المحتلة.. وتهدد الكيان الإسرائيلي بإزالته عن بكرة أبيه وتحرير الأرض المحتلة من أنيابه، إذا تململ ليصلح من جلسته على أية أرض عربية جديدة.

وبين ليلة وضحاها بات الشرق الأوسط على شفير هاوية، أعلنت إسرائيل استعدادها للحرب وبدأت تهدد جيرانها، وبات العرب مدافعين بعد أن كان لهم شرعية القتال وتحرير الأرض المغتصبة.

عزز كل جانب قواته المسلحة، أُعلنت حالة الطوارئ القصوى، وباتت الحرب وشيكة الوقوع بين لحظة وأخرى.

وفيما كانت الأحداث تتسارع، كان صلاح غارقاً في همه الوحيد.. فلا يرى غير سهير تملأ حياته وبصيرته، كيف يحظى بها وينجو معها بجلده من هذه الحرب، يدور في عاصفة من الأفكار، ويلح على والده بأنه ينوي الزواج والسفر قبل وقوع الحرب.

استغرب والده من حديثه وقال: "انتظر يا صلاح ولا تتعجل الأمور.. غداً بعد تحرير الأرض المغتصبة تتزوج في قلب فلسطين، وتقضي شهر العسل في حيفا ويافا وربوع فلسطين، فلماذا تتعجل الأمور!".. لكن صلاح لم يقتنع وأسرع إلى بيت سهير، فلم يجدها في البيت، ووجد نفسه أمام والدها يوسف ورفيقه أبي محمود، فجلس ينتظرها ويتبادل الحديث معهما، قال:

- لا أدري يا عمي كيف أبدأ الحديث معك، فالعالم على شفير هاوية وأنا أفكر في الزواج والسفر.
- الزواج والسفر في هذا الوقت يا صلاح!.
- أجل يا عمي، لقد قررت بعد أن تأكدت من إشعال فتيل نار الحرب.

نظر إليه أبو محمود وقال:

- هل تخاف من الحرب يا صلاح؟
- لا أخاف، لكني أحب الحياة أكثر.
- ومن قال لك أنك ستموت؟، الأعمار بيد الله.. غداً بإذن الله تتزوج وتقضي شهر العسل في رحاب فلسطين.. هل تعرف كيف تستعمل السلاح؟
- لا أعرف، وأتمنى لو تعلمت استعماله قبل هذا الوقت، لكني أشعر أنه قد فات الأوان.
- لم يفت الأوان بعد، أنت شاب في مقتبل عمرك، وفلسطين بحاجة إلى شباب مثلك لتحريرها..

فجأة ولجت سهير البيت، فبادرها يوسف بقوله إن صلاح يستعجل الزواج والسفر قبل أن تقع الحرب فما رأيك؟

نظـرت سـهير نحـو صـلاح وقالـت باسـتغراب: فـي هـذه الأيام!، كيف تسافر والبلد في حالة حرب.. انتظر لنسافر معاً إلى قلب فلسطين.

قال: العرب يعيشون حالة حلم، إنهم لم يستعدوا للحرب ولا نية عندهم للقتال..

قاطعـه يوسـف: لا تكـن متشـائماً يـا بنـي، إن الله معنـا، وستعود فلسطين بإذن الله.. علـى كل حـال، عد غداً.. وبـإذن الله سيتم كل شيء كما تريد.

****

شتات

صباح اليوم التالي هبّ صلاح من نومه على صراخ والدته وهي تقول إن الحرب اشتعلت بين العرب واليهود.. وقد عرف صلاح أن الأرض العربية اهتزت لتزيل عن كاهلها غبار سنوات الاحتلال المتراكمة، وأن آلاف الكيلومترات من الحدود العربية المتاخمة للأرض المحتلة تحترق وتقذف بحممها وقذائفها على العدو الجاثم على بقعة الأرض العربية الفلسطينية.

تراكض الجميع فرحين، زغردت النساء تلذذاً بنشوة النصر.. ونقلت محطات البث العربية المسموعة والمرئية أحاديث النصر والبطولة عن أحلام الشعوب والجماهير.. ولم تمض أيام قليلة حتى تمدد الأخطبوط الصهيوني محاصراً الجيوش العربية وأوقف الزحف العربي، وزاد على ذلك بابتلاع أراض عربية جديدة من الجولان والضفة الغربية وصحراء سيناء.

وفيما كان الناس يجرون أذيال الخيبة باتجاه الشرق والنهر.. وقادة الجيوش والحكام العرب يطلبون وقف إطلاق

النار، قادته قدماه إلى بيت سهير، كان البيت خاوياً، وعندما عاد إلى بيت والده وجده رماداً بعد أن اشتعلت فيه النيران، وغادر أهله مع من غادروا باتجاه الشرق.

الصدمة شلّت أفكاره، وجد نفسه يسير مع الجموع باتجاه الشرق.. عند النهر استوقفه مشهد امرأة تحتضن وليدها وتصرخ بأعلى صوتها.. كانت تشده إلى صدرها في محاولة لدفع الموت عنه.. خُيّل لصلاح أن الأم تسحق عظام أبنها بيديها فتشده إلى جسدها حتى لا يفارقها أبداً، لكن مشيئة القدر كانت الأقوى، فاضت روح الطفل وهي لا تصدق.. صرخت بأعلى صوتها، واحتضنته من جديد إلى صدرها، ثم قامت تركض به لا تعرف إلى أين تتجه، لكن الرجال أوقفوها وأخذوا طفلها وأودعوه الأرض الرحيمة.

كان صلاح يعاني خيبة ما بعدها خيبة، غرق في تفكيره ومساعدة المكلومين في مخيم البقعة الذي استقبل اللاجئين في الخيام.. أخذ يدور بين الجموع ويبحث عن أناس يعرفهم، يُحدث نفسه "ماذا فعل هؤلاء الناس، ولماذا شُردوا، ألأنهم ضعفاء!، في شريعة الغاب القوي يأكل الضعيف، لكن الضعيف لن يبقى ضعيفاً والقوي لن يدوم جبروته".. تمادى في أفكاره وراح يهذي بصوت خافت.. "كيف استطاع العدو

تشريد هذا الشعب من دياره، كانت بيوتهم التي فارقوها تشهد عمرانهم وتقدمهم، أما اليوم فهذا العراء يشهد بؤسهم وضياعهم"، فجأة تراءى له الأطفال يرتدون ثياب الجنود وقد حملوا السلاح وتوجهوا إلى الغرب وهم يصرخون "إننا عائدون، عائدون يا أرضنا العربية، عائدون لنحرر الأقصى وكل الأرض التي دنسها الأعداء وهجّرونا من الوطن".. وفيما كانت الأجيال الجديدة تتراءى له تحمل السلاح، حدث نفسه "ستصرخ هذه الشعوب يوماً ما، وستدوي هذه الصرخة في كل واد وعلى كل مرتفع من أرضنا العربية، ولن يوقف زحف هذه الشعوب أية قوة، لأن إرادة الشعوب من إرادة الله.. لن تستطيع الأعاصير أن تقتلعها، ستحطم هذه الخيام في يوم قادم مناصب الخونة، ستفل القيود وستثور".

قطع حبل أفكاره عجوز يستوقفه على قارعة الطريق ويقول: "يا بني، هل معك كسرة خبز أو جرعة ماء، أكاد أموت جوعاً وعطشاً يا ولدي"، وقف صلاح حائراً لا يدري ماذا يفعل أمام كلمات العجوز، فأضاف العجوز "هؤلاء الملاعين، لم يرحموا شيخوختنا، لقد طردونا من أرضنا واحتلوا بيوتنا، اقتلعوا أشجارنا وألقوا القبض على أبنائنا".. وكأنه نسي جوعه وظمأه فأضاف "يا بني، أنت شاب بعمر

أولادي، لماذا تدور هائماً على وجهك وتقف مكتوف الأيدي، ألم تر المصيبة التي حلت بنا، احمل السلاح وقاتل من قاتلونا واحتلوا أرضنا.. لقد فقد العرب كرامتهم في هذه الحرب.. إنها أرضنا يا ولدي، أنهكنا قوانا في فلاحتها وإصلاحها وجاؤوا اليوم ليطردونا منها".. قال ذلك وراح يمسح دموعاً انهالت على وجهه، ثم عاد يقول "ألا تملك كسرة خبز أسد بها جوعي يا ولدي!"..

لم يدرِ بماذا يجيب وهو الجائع أيضاً.. الجميع جائعون ومنهكون.. قطع حبل أفكاره طفل يصرخ ويناديه "صلاح، صلاح"، ولم يصدق عينيه وهو يرى أخاه الصغير يترك أطفالاً كان يلعب معهم ويركض نحوه.. أسرع صلاح إليه واحتضنه، ثم قاده الصغير إلى خيمة وسط المخيم وهو يصرخ من بعيد "ماما ماما، جاء صلاح".

وكأن والدته ترى صلاح للمرة الأولى في حياتها، احتضنته بين ذراعيها وهي تهيل الدموع وتقول "لقد استجاب الله لدعائي، أين اختفيت يا ولدي"، قال وهو يلج الخيمة ويسلم على والده "كنت أبحث عنكم وأرقب المأساة".

هز والده رأسه وقال وكأنه يحدث نفسه: "أجل يا ولدي، إنها مأساة تفوق هجرة عام الثمانية والأربعين".

في الليل هب نسيم بارد يلسع من تدثروا في الخيام، ويقرص من استلقوا في العراء موكلين أمرهم إلى الله.. تثاءب صلاح ونهض يمسح الرمال العالقة على وجهه وشعره والمتسربة تحت ثيابه، وفي ذاكرته ما زال يسمع أزيز الرصاص يخترق مسامعه، وسهير دمعة كبيرة تتحجر في عينيه، لا يعرف عنها شيئاً..

عند الصباح ظهرت مجموعة من المهجّرين الجدد، كانت علامات الإجهاد واضحة على أجسادهم، ووجوههم بدت نحيلة بعيون تائهة تنظر إلى العدم.. من بينهم ظهرت نساء ذوات وجوه صفراء نحيلة تبحث عن بقايا عائلات متفرقة وممزقة، سرعان ما توجهت إلى قمة التل القريبة حيث أقيمت مقبرة لدفن من لم تكتمل مسيرته أو لمن ضل طريق الحياة.. ومن على بعد علت الأكوام المتراصة من التراب محاطة بحجارة صغيرة وقد غُرس حجران كبيران في كل جهة علامة على دفن شهيد أو فقيد، وباتت النسوة بين القبور ينتحبن ويعددن مآثر من فقدن من حبيب أو قريب.

الشمس كانت على وشك الرحيل عندما شاهد صلاح عجوزاً توقفه وتقول: "الحمد لله على سلامتك يا أحمد"، وعندما نظرت إلى وجهه تراجعت قليلاً، تأملته ثانية وأضافت "لا، أنت لست

ولدي أحمد، لكنك تشبهه تماماً، ألم تره في طريقك؟".. كان صلاح حائراً وهو يتنقل من مكان إلى آخر.. أسير قدميه، وكأنه شبح يطارد أفكاره الهائمة تحت حرارة الشمس وفي ظلام الليل.. عند الغروب عاد إلى صرحه الجديد لا يلوي على شيء، وصورة سهير تتراءى له في كل المشردين.. وفي داخل الخيمة أخذ يقضم كسرات الخبز اليابس وكأنها أشهى المأكولات إلى نفسه.

***

فيما كان صلاح يتجول في أنحاء المخيم يبحث عن سهير، شاهد حشداً من الرجال يتجمعون قرب خيمة بالية، اندفع نحوهم، شاهد رجلاً ممدداً على فراشة وقد تشوه وجهه أثر حروق ألمت به، بينما جلس أحدهم قرب رأسه يقرأ ما تيسر له من آيات قرآنية، أجال صلاح النظر يميناً وشمالاً ولم يصدق أنه يرى "حامد" على هذه الحالة.. تقدم منه والحيرة تملؤه وقال: "حامد! ماذا حدث لك؟".. وحين سمعه أحدهم قال "هذا ما تفعله قنابل النابالم في البشر".. بينما قال الرجل الجالس قرب حامد: هذه نتيجة الحرب، لكن مَن أنت؟، أنا لم أرك قبل اليوم.

نظر صلاح إليه، رجل لا يتجاوز الخمسين من عمره لكنه بدا بعمر يناهز السبعين، كانت لحيته كثة وطويلة، ومع ذلك لم تستطع أن تخفي عظام وجهه البارزة.. تأوه حامد وقال بصوت متقطع لا يكاد يُسمع وهو ينظر إلى والده: "هذا خطيب سهير".

رجف أبو حامد وارتعش في مكانه وفي ذهنه ألف سؤال وسؤال.. فقال صلاح: أنا آسف لهذه الحالة.. وتراجع إلى الوراء يخفي دموعه، بينما كان حامد يودع روحه إلى خالقها.

عند المساء شارك صلاح الجموع في جنازة حامد، وبقي لساعات عدة يدعو له بالرحمة والخلود والراحة.

"لقد ذبل كل شيء وذوى". حدث نفسه وألقى بجسده بين إخوته في محاولة لنسيان ما حدث.. ومع هجيع الليل تسنى لي أن يسمع ما يدور بين والديه من حوار:

- أبو صالح، هل نمت؟
- لا، لم أنم بعد، فمنذ عودة صلاح وأنا أفكر أين يمضي نهاره؟
- أما أنا فأفكّر في الأولاد، فقد ناموا بلا عشاء ليلة البارحة.
- إن الله لا ينسى أحداً، غداً سأبحث عن عمل لعل الله يرزقنا برزقهم.

ساد الصمت لدقائق عدة، غير أنّ صلاح شعر بالجوع ينهش أمعاءه، تساءل في قرارة نفسه، "كيف من ناموا بلا عشاء ليلة البارحة!".. للمرة الأولى يشعر بالندم على الأيام الضائعة التي قضاها في البحث عن سهير، ومع شروق أول خيط من خيوط الفجر، نهض وانتعل حذاءه، وانسلّ دون أن يلحظه أحد قاصداً موقف الباصات المتجهة إلى مدينة عمان.

****

بداية الطريق - مصنع الرجال

ذات مساء وبينما كان صلاح يجلس في أحد مقاهي عمان، يرتدي ثياب العمل ويجلس وحيداً يشرب الشاي.. وقع نظره على وليد، كان ينظر يميناً وشمالاً وكأنه ينتظر أحدهم.. تمعن صلاح في وجهه من خلال الأضواء، كان شاحباً وكأنه يحمل هموم العالم على كاهله.. فقام وجلس قبالته قائلاً "منذ آخر لقاء لنا في رام الله لم أرك، كيف حالك يا وليد؟"

فوجئ وليد بوجوده، تأمل وجه صلاح ووقف يعانقه بشوق ولهفة.. سأله عن أخباره، فقال صلاح "منذ أسبوع وأنا أبحث عن عمل ولم أجد، لكن أخبرني كيف تركت رام الله وأنت الذي أقسم أن لا يتركها أبداً".

تنهد وليد وقال: جئت إلى هنا مع والدتي، وأنت تعرف إن لا معيل لها غيري.

- وأنا جئت إلى عمان أبحث عن عمل لأقيت أهلي بعد أن أتت النيران على كل ما نملك أثناء الحرب.
- الحرب حرقتنا كلنا ولم ينج أحد، قل لي ماهي أخبار سهير؟
- لقد ضاعت مني في الحرب، ولم أجد لها أثراً.

- هذه حكاية ضياع جديدة، هيا معي إلى بيتي لتقص عليّ قصتك.

في غرفة وليد الشحيحة الأثاث، طالت سهرتهما تلك الليلة، قال وليد أنه التحق بالفدائيين ويقيم في الأغوار، أما والدته فتقيم معه في البيت..

بقي صلاح صامتاً يستمع لحكاية وليد، ثم قال:

- كم كنت غبياً عندما ضللتُ الطريق منذ زمن، لكني لم أجد خيطاً يقودني إلى الطريق الصحيح، كيف نسيت الانخراط في العمل الفدائي الذي يقود إلى تحرير القدس واسترجاع فلسطين.
- لا تندم على الماضي، طريقنا لاسترجاع الأرض طويل، وإذا كنت على استعداد..

قاطعه صلاح: أنا على استعداد منذ هذه اللحظة.

- إن غداً لناظره قريب، استرح الآن وفي الصباح سأرافقك إلى مركز التدريب.

***

بعد ظهيرة اليوم التالي، وفي طريق صلاح مع رفيقه وليد إلى غور الأردن، ظل الأخير صامتاً غارقاً في بحور

أحلامه، وفيما كانت الكآبة تلفهما، كان صلاح يحدث نفسه "سأعود إلى أمي وأبي وأنا أحمل السلاح.. فتزغرد أمي، ويبتسم أبي، لأني سأمهد الطريق إلى القدس.. أه يا قدسي، يا أرضي.. أيتها الأسيرة.. ألا يكف ما احتمله الشعب الفلسطيني عام ٤٨ حتى أعادوا له نفس الأسطوانة الحزينة بنفس المأساة وأبشع في الخامس من حزيران!".

في إحدى القواعد شمالي بلدة الكرامة ترجلا من السيارة وولجا القاعدة بعد أن عرّف وليد حراسها على نفسه.. ثم توجها مباشرة إلى آمر القاعدة.. وما أن شاهد الأخير صلاح حتى قال "أهلاً صلاح، وأخيراً اقتنعت بأن فلسطين بحاجة إلى رجال لتحريرها".. فقاطعه صلاح وهو يصافحه: "يسعدني أن أكون في خدمة الثورة الفلسطينية".

نظر وليد إليهما وقال: "وكأنكما تعرفان بعضكما البعض؟"، فقال "وكيف لي أن أنسى أبا محمود وقد تقابلنا أكثر من مرة في بيت يوسف قبل الحرب"، فقال أبو محمود "أين اختفيت بعد الحرب، قال لي يوسف أنه لم يرك منذ ذلك اليوم".

- لقد بحثت عنه ولم أجده كما لم أجد سهير.. كان الرحيل عاماً طاماً كما الضياع..

- معك حق، كان الرحيل أشبه بيوم القيامة.. لكني أؤكد لك أن الأمور بخير وستجدهما في القريب العاجل..

بعد لحظة صمت قال صلاح "كانت أمنيتي أن ألتقي بسهير، وكانت فكرة القتال تصيبني بقيء وغثيان، أما اليوم فلا أمنية لي غير أن أحمل السلاح وأقاتل من قاتلونا وهجّرونا من أرضنا"..

قطع وليد كلامه واستأذن بالرحيل قائلاً "طالما تعرفان بعضكما البعض، فليس لي مكان بينكما، أستأذنكما بالعودة إلى مكان عملي".

لم يمانع أبو محمود، وقال "كن مطمئناً، لقد وصلت الأمانة"، وطلب من أحد المقاتلين ويدعى "أحمد" أن يعتني بصلاح تلك الليلة.

***

مع شروق شمس اليوم التالي، ترافق أحمد وصلاح في سيارة عسكرية إلى معسكر قريب.. في الطريق لم ينبس أحدهما ببنت شفة، لكن صلاح كسر حاجز الصمت وقال:

- لماذا لا تتحدث يا أحمد؟

أجاب احمد دون أن يلتفت نحو صلاح: ماذا أقول بعد أن لجمتنا الهزيمة وقطعت ألسنتنا؟.

- هل تقيم هنا في الأغوار؟.

تنهد أحمد وقال: استشهد والدي عام النكبة، فعشت وحيداً مع أمي في أريحا حتى الخامس من حزيران، وفي ذلك اليوم عدت ظهراً من عملي فلم أجد والدتي، وهي العجوز الضعيفة.

- ألم ترها منذ ذلك التاريخ؟. سأله صلاح بتأثر.

قال وهو يحاول أن يخفي العلامات التي ارتسمت على وجهه "ليتني ألتقي بها".

خيّم الصمت عليهما من جديد.. تذكر صلاح تلك العجوز التي شاهدها في مخيم البقعة وهو يبحث عن سهير.. حدث نفسه، كانت المرأة تبحث عن ولدها أحمد، وهذا أحمد يبحث عن والدته.. أيعقل أن تكون والدته؟، فقال:

- قبل أكثر من ثلاثة أشهر، تعرضت لي امرأة تقول بأني أشبه ابنها أحمد، وعندما نظرت إليك وجدت كثيراً من وجه الشبه بيني وبينك.. أجل إني ما زلت أذكرها تماماً، كانت ترتدي ثوباً أسود اللون وقد ناهزت الستين من عمرها.

أوقف أحمد السيارة قرب باب مسوّر بالأشجار، ظهر عدة رجال يحملون أسلحتهم الخفيفة، وعندما عرفوا أحمد سمحوا له بالمرور إلى داخل المعسكر.. وقبل أن يترجل صلاح منها شكره أحمد على المعلومات التي أدلى بها عن مكان وجود المرأة.

بعد وجبة التعارف مع المقاتلين، تقدم من صلاح أحد الرفاق وقال بلا مقدمات "الحياة قاسية جداً هنا".

هز صلاح رأسه وحدث نفسه: لن تكون أقسى من الأيام التي عشتها في محنتي، القسوة هنا من أجل هدف شريف، وغايتها بعث الثورة من جديد، أما هناك فقد كانت القسوة غاية بحد ذاتها.. لقد دفعنا الأعداء إليها دفعاً، كانوا يحبون لنا العذاب حتى الموت".

قطع المقاتل حبل أفكار صلاح وأضاف "الحياة قاسية جداً، ومن لم يكن ذئباً أكلته الذئاب.. لتكن الأقوى حتى تعيش، فقضيتنا عمل متواصل مع الصبر على المصائب دوماً".

- سأكون عند حسن الظن بي دائماً. قال صلاح.

ظهر المدرب قربهم فجأة، رجل طويل القامة، عريض المنكبين، وجهه أسمر بفعل حرارة الأغوار اللاهبة.. نظر إلى صفوف المتدربين يتفحصهم واحداً بعد الآخر وتوقفت

نظراته عند صلاح.. تأمله صلاح عن كثب وكاد يسقط أرضاً.. لم يصدق عينيه وهو يرى أخيه "صالح" يقف أمامه، يحمل سلاحه ويرتدي لباسه المرقط.. تعانقا، وتحت شجرة وارفة الظلال قص على مسامع صلاح قصة هروبه من سجن الاحتلال مع مجموعة من الرفاق أثناء الحرب، أضاف أنه بحث عن والديه وأفراد الأسرة، لكنه لم يجد أحداً منهم بعد أن هجّرتهم الحرب إلى الضفة الشرقية من نهر الأردن، فعاد إلى عمله مع الثورة وراح يدرّب المتطوعين.

تلك الليلة وصالح يتحدث مع أخيه صلاح، قال إن كل مقاتل يحمل اسماً حركياً غير اسمه الحقيقي.. واقترح أن يدعو صلاح باسم حركي "عبد الله حامد" وينسى اسمه الحقيقي صلاح.. لم يجب صلاح وبقي صامتاً وهو يفكر بانتهاء التدريب ومرافقة أخيه صالح إلى والديه في مخيم البقعة، وراح يطارد أحلامه في خضم حياته الجديدة منتظراً بفارغ الصبر دخول الأرض المحتلة ويده قابضة على السلاح.

***

انقضى أكثر من شهرين على قدوم صلاح إلى المعسكر، تلقى خلالها كافة التدريبات على السلاح والقتال، ثم تخرج مع

مجموعتـه ليخوضـوا غمـار معـارك الشـرف فـي بطـولات الأفراد وسط الظلام.. ولم يكن ذلك اليوم الذي قيل له فيه بـأن يسـتعد لـدخول الأرض المحتلـة مفاجـأة بقدر مـا كـان تحمساً وانتظاراً.. ومع ذلك أوقع الخبر في قلبه الفرح حتى شعر أنـه يتراقص بين ضلوعه.

مساء اليوم التالي، انطلق مع مجموعة من المقاتلين صوب النهر، حتى إذا غزا المنطقة جيش الظلام انطلقوا يعومون في مياهه الدافئة إلى ضفته الغربية، ومنها تسللوا عبر الأشجار يرقبون كل ما تقع عليه أبصارهم، وكمنوا يرصدون تحركات جيش الاحتلال خلف النهر حتى الفجر.

رغم استعدادهم لأي صدام مسلح مع قوات الاحتلال، إلا أنهم كـانوا يتحاشـونه بانتظـار سـاعة الصـفر.. كـان صـلاح يشعر بزهو لا مثيل لـه، وقد أحس بخفوق قلبـه المتـراقص جذلاً، وحب القتـال يدفعـه إلـى الأمـام حـاملاً قنبلتين يدويتين وبندقية من نوع كلاشنكوف وضع إصبعه على زنادها.

الليل كـان سـاكناً والظـلام يحيط بالمكـان.. ومن علـى بعد شـاهدوا أضـواء خافتـة وأشـباحاً متحركـة بـين أكـوام سـود لـم يتبينوها تماماً في الظلام.. فداروا حول المكان حتى أيقنوا أن هـذه الأكـوام مـا هـي ألا دبابـات قـد أخفيـت بـين الأشـجار

المتناثرة.. رصدوا هدفهم الأول، ثم انقلبوا راجعين باتجاه النهر، وقد أجمعوا على فكرة واحدة بتدمير هذا المعسكر في الليلة القادمة.. وقبل أن يصلوا ضفة النهر، تسلّل صلاح إلى الطريق الرئيس وغرس لغماً مضاداً للدبابات في باطن الأرض.. وراحوا في القاعدة يخططون ويجهزون ما يحتاجونه من عتاد ورجال لهذه المهمة.

***

أفاق صلاح من قيلولته ظهر اليوم التالي على صوت يقول: لا بد أن أشترك في هذه العملية.

- لقد اكتمل عددنا، انتظر حتى العملية التالية.
- ومتى ستكون؟
- بعد ثلاثة أيام.
- لا، لا أطيق الصبر، لا بد أن أشترك هذه الليلة في عملية ما.

حمل صلاح سلاحه وانطلق إلى حيث ينبعث الصوت، شاهد أحمد يتجادل مع آمر المجموعة "أبي عماد".. سلم على أحمد وهدأ من ثورته فقال احمد: جئت مع أبي محمود، وعندما عرفت بأمر العملية رجوته أن يمنحني شرف الاشتراك فيها، فقال بأن الأمر يعود لآمر المجموعة.. لكني وجدت معارضة من آمر المجموعة أبي عماد.

- سأحاول مساعدتك، أين أبا محمود؟
- إنه هناك خلف الأشجار مع مجموعة من المقاتلين.
- انتظرني حالما أسلم عليه وأعود.

كان أبو محمود يعطي أوامره للمقاتلين وأبي عماد يقف قربهم.. سلم صلاح عليه وطلب منه أن يوافق على رغبة أحمد، فنظر إلى أبي عماد وقال "أعتقد أن أبا عماد موافق أيضاً".

عاد صلاح إلى أحمد، زف إليه الخبر، ثم سأله: هل عثرت على والدتك؟

تنهد احمد وقال: نعم، عثرت عليها لكن بعد فوات الأوان.
- أخبرني ما الذي حدث؟
- عندما التقيتُ بها لم تعرفني.. وعندما عرفتني فارقت الحياة.
- أنا آسف لحالتك، لكنها إرادة الله.

****

موسم الحصاد

قاربت الساعة من الخامسة مساء عندما ظهر أبو محمود يقول: أعدوا كافة الأسلحة لتنطلق المجموعة الآن.

كانوا خمسة مقاتلين، ثلاثة ممن رصدوا الهدف ليلة البارحة، أبو عماد وعبد الله حامد وأبو خليل، إضافة إلى أحمد وعادل.. وفيما كانوا يعدون السلاح والذخيرة، تقدم أبو محمود يحييهم ويودعهم قائلاً: "لتكن أنت يا أبا عماد آمر المجموعة، وسيساعدك عبد الله حامد في ذلك.. أما البقية فكل واحد يعرف سلاحه وواجبه.. أتمنى لكم التوفيق والعودة سالمين".

أضاف ابو محمود وهو يودع المجموعة: "لن تموت الأمة العربية، ولن تفنى الثورة الفلسطينية التي أنجبت رجالاً مثلكم.. أنا فخور بكم لأنكم رجال الثورة والوطن، سأنتظر عودتكم، ولن أبرح القاعدة حتى أرى وجوهكم عند الصباح".. ثم تقدم منهم يقبلهم ويودعهم واحداً بعد الآخر، وعندما وصل عبد الله حامد عانقه بقوة وهمس في أذنه "أخوك صالح غادر القاعدة في مهمة مستعجلة، وينتظر عودتك بفارغ الصبر سالماً ليرافقك إلى الأهل في مخيم

البقعة". وفي نهاية المطاف هتفت المجموعة بحياة الثورة الفلسطينية.

مع هجوم جيش الظلام على المنطقة، هب النسيم وتراقصت أوراق الأشجار على حفيف مشاة يتسللون بينها كالأشباح باتجاه مياه النهر.

دقائق معدودة مرت، وجدوا أنفسهم بعدها على ضفاف النهر الغربية وسط الأشجار المتشابكة الأغصان، تعالا إلى أسماعهم أصوات طلقات نارية متفرقة على ضفاف النهر شمالاً وجنوباً، ما لبثت أن انقلبت إلى زخات تقترب من مكان تواجدهم.

كمنوا قرب النهر بين الأشجار زهاء الربع ساعة، ثم أخذوا يتسللون نحو الهدف الذي رصدوه بالأمس.. تراقصت الأشجار ولسان حالها يقول "من هنا مر الأبطال".. بينما أخذت أغصان أخرى تحثهم على التقدم، وكأنها ما وجدت ألا لتظلل أبطال المجموعة وتخفيهم عن أعين الأعداء.

طواهم الليل بين الظلمة وأزيز الرصاص المتقطع، وتفرقت المجموعة ليحمي كل منهم رفيقه، حتى بدت أضواء المعسكر المنشود تتراءى لهم خافتة من بعيد، وعندما ظهرت

الأكوام السوداء والدبابات واضحة للأعين، كمنوا يرقبون تحركات الجنود داخل الثكنة العسكرية.

"سنضرب من هنا" قال أبو عماد للمجموعة وأمر أن يُغرس العلم الفلسطيني فوق التل.. ثم حمل سلاحه وتقدم إلى نقطة يستطيع من خلالها أن يطلق النار على كل من يتحرك في القاعدة.. وخلال ذلك نصب عبد الله حامد مدفع الهاون في الأرض وغرس بجانبه خمس قذائف، وأوصاها أن لا تترك أثراً لقاعدة الأعداء غير الدمار، بينما اختفى بقية الرفاق في مراكز مطلة على نفس الهدف، وبات الجميع ينتظرون ساعة الصفر بكل حواسهم.. وسرعان ما دوى صوت أول انفجار في المعسكر.

كان عبد الله قد بعث برسالة الدمار الأولى إلى المعسكر، فأُطفئت الأنوار على الفور، لكن الدبابة التي اشتعلت فيها النيران أضاءت ما حولها، أسرع عبد الله بإرسال القذيفة الثانية والثالثة إلى الأماكن المتقاربة بين الأكوام المغطاة بالأغصان لتنتشر الحرائق وتعلو الانفجارات.. وعلى نور الحرائق شاهدوا أشباحاً مذعورة تتراكض في كل اتجاه من المعسكر، فأخذوا يمطرونهم بكل أنواع القذائف والأسلحة.. بينما تقدم أبو عماد نحو المعسكر وألقى قنبلة حارقة على

دبابة قادمة من بين الأشجار وهو يصرخ "الله أكبر، عاشت الثورة الفلسطينية"، ثم تراجع إلى الوراء وهو يطلق النار في كل اتجاه، تراجع معه بقية العناصر حاملين ما تبقى معهم من ذخيرة وسلاح، وعادوا يشقون طريقهم باتجاه النهر ثانية والنيران تلاحقهم من كل اتجاه.

استطاعوا أن ينسحبوا إلى الوراء مسافة تربو على النصف ميل قبل أن يسمعوا أصوات الطائرات المروحية تلاحقهم.. ثم ما لبثت أن أضاءت السماء بالقنابل المضيئة حتى بدا المكان وكأنه في وضح النهار، فبات من العسير على أي من المقاتلين أن ينتقل بين الأشجار أو يتحرك.. وركنت القوة المهاجمة بدورها إلى إطالة الوقت حتى بزوغ الفجر.

كانت الرسائل المتفق عليها بين المقاتلين أن يُطلق أحدهم قذيفة حمراء نحو الشرق إذا كانت مجموعته في خطر.. وهذا ما دفع أبو عماد للتسلل مبتعداً عن رفاقه وإطلاق قذيفة حمراء شقت السماء باتجاه الشرق.. ومع أن القذيفة وصلت إلى هدفها المنشود باتجاه ضفاف النهر الشرقية، إلا أن مكان إطلاقها تحول إلى كومة من الحرائق بعد أن سقطت عليه عشرات القذائف ومئات الطلقات النارية، ومع ذلك استطاع أن يعود سالماً إلى رفاقه المحاصرين.

مرت الثواني كالساعات، كان خلالها إطلاق النار مثل زخات المطر لا ينقطع عن تلك المنطقة، تحول تدريجياً ليشمل شرق النهر، ردّ الفدائيون من شرق النهر على النار، وانطلقت القذائف بغزارة من مواقع الجيش الأردني ترد على النيران بنيران أشد وأعنف.. أما قذائف ال آر بي جي فكانت تهز المكان حتى ليشعر المرء أن العالم قد انتهى.. مما دفع المجموعة بالانسحاب سريعاً تجاه النهر، لكنهم فوجئوا بوجود كمين إسرائيلي قرب النهر.. ومع أنهم اجتازوا المرحلة الأولى بنجاح، إلا أن الجزء الشاق والأهم منها كان بعبور النهر سالمين.. وفي لحظة حاسمة وقف آمر المجموعة يحمي رفاقه المحاصرين حتى يجتازوا النهر، فجأة سقطت قذيفة على مقربة منهم، فصرخ عادل "اعبروا النهر، سأحميكم".. فقال أبو عماد "بل ستجتازه أنت قبلي".. إلا أن عادل لم يتحرك من مكانه وقال "انجوا بأنفسكم.. لقد أُصبت".. وعندما تقدم أبو عماد يساعده انغرست يده في لحم طري كالقطن، كان بطن عادل قد بُقر وظهرت منه أمعاؤه.. فقام أبو عماد بإسعافه وحمله بين ذراعيه إلى مياه النهر متخفياً بين الشجيرات متجهاً إلى ضفة النهر الشرقية.

قرب ضفة النهر الشرقية وقف يحمي رفاق السلاح وهم يجتازون النهر، ظهر أبو خليل أولاً، ثم ظهر أحمد يجر نفسه فوق الرمال، وفي اللحظة التي قام فيها أبو خليل بمساعدة أحمد سقطت قذيفة على نفس المكان، صرخ أبو خليل وسقط على الأرض في الوقت الذي شاهد فيه ساقه اليمنى ملقاة على بعد أمتار منه، حبس أنفاسه وخنق صرخات الألم التي تعتريه وزحف نحوها، تحامل على ساقه اليسرى ووقف، قال وهو يلقي بساقه المقطوعة غرب النهر "لن تُدفني هنا، بل هناك في أرضنا الفلسطينية".. وسرعان ما وقع على الأرض مرتطماً برمالها يصارع الموت.. أسرع أحمد يلف ساق أبي خليل ويسعفه، بينما وقف أبو عماد ينظر باتجاه ضفة النهر الغربية ينتظر أوبة عبد الله حامد.. وحين طال الانتظار وأشرقت الشمس قال أحمد "لا فائدة من انتظاره، أظن أنه وقع في كمين، كان بطلاً حقيقياً ".

****

صالح

أرخت الشمس أعنتها للكون ذلك الصباح وأنا أقف أرقب القادمين بلهفة وشوق، وحين عرفتُ أن أخي عبد الله لم يعد مع أفراد مجموعته، لمتُ نفسي، ومع ذلك استبعدت فكرة الموت عنه وبقيت آمل بعودته.. انسابت دموعي ذلك الصباح واستبعدت أن يكون أخي أسيراً أو شهيداً، وظللتُ طيلة النهار أنظر نحو الغرب وأرقب عودته بفارغ الصبر.

ذات صباح، وبعد مرور أكثر من خمسة عشر يوماً على غياب أخي عبد الله، انتشر خبر عودته.. قال من وجده قرب ضفة النهر الشرقية أن عبد الله كان فاقد الوعي، وحين لفحته حرارة الشمس أفاق مذعوراً وكأنه يعيش في حلم مرعب.. وعندما همّ بالوقوف خانته قدماه، فاستعان بيديه ليكمل رحلته بين الأشجار حيث ترك سلاحه المعلق تحت إبطه خطاً متعرجاً على الأرض، صرخ المقاتل عليه "قف مكانك".. لكن الرجل لم يستطع الوقوف، واكتفى بالنظر إلى حامل السلاح.. وعندما شاهد ثلاثة من المقاتلين قادمين أيضاً من بين الأشجار، حاول أن يتكلم، إلا أن صوته لم ينطلق من حنجرته ليصل إلى أسماعهم، وسرعان ما سقط مغشياً عليه، فنقلوه إلى أقرب مركز صحي لإسعافه.

بعد ساعات عدة بدأ عبد الله يستعيد وعيه ونشاطه.. انتشر خبر عودته بعد غيبته الطويلة مثل انتشار النار في الهشيم، وحين سمعتُ بعودته، سبقتني دموع الفرح نحو سريره.. وصل أبو محمود ووليد أيضاً مع رفاق السلاح لتهنئته بالعودة سالماً، وعندما سألته عما حدث معه وعن سبب غيابه طوال المدة السابقة، راح يستعيد الأحداث ويتذكر بصعوبة ما حصل معه..

قال عبد الله حامد إنه شاهد دبابة تتقدم إلى الجهة التي وقف فيها يقاوم الجنود حتى يعبر رفاقه النهر بسلام.. كانت الدبابة تطلق النار بغزارة إلى جهة بعيدة شرقي النهر، وفي نفس اللحظة شاهد رجال الكمين يعودون لمكانهم وهم يطلقون النار باتجاه رفيقة احمد، فحاول إنقاذه بأن ابتعد عنه، وأطلق النار على الدورية الإسرائيلية، مما جعل الدورية تحول نيرانها باتجاهه، وجد نفسه عند بزوغ الفجر محاصراً من جميع الجهات، اتجه إلى الغرب بين الأشجار والدورية تلاحقه، توقفت دبابة ثانية في طريقة.. للمرة الأولى يُفكر في النجاة، ويُفضل الحياة على الموت.. في لحظة مفاجئة قفز وانسل زاحفاً على بطنه بين عجلات الدبابة النصف مجنزرة وكمن لدقائق معدودة، شعر بعدها أن الدبابة بدأت تتحرك من مكانها

والجنود يحيطون بها، وبدافع حب الحياة وجد نفسه يتشبث بأحد أعمدتها الأرضية محاولاً رفع ما يستطيع من جسده عن الأرض، ليجد الدبابة تنحرف إلى الشارع الرئيس، وتسرع في طريقها إلى مكان مجهول.

أنهكه التعب وكاد يفقد توازنه أكثر من مرة.. وكان كلما ارتطم جزء من جسده في الأرض، عاد وتشبث بأقوى من ذي قبل، إلى أن وجد نفسه في مكان لم تطأه قدماه من قبل بعيداً عن النهر.. أبطأت الدبابة في سيرها، أرخى ساقيه على الأرض واتبعها بثقل جسده متدحرجاً بين المزروعات القريبة، منزوياً خلفها يرقب بحذر مكان وجوده.

من على بعد شاهد أشجاراً متناثرة، فقرر الوصول إليها بأي ثمن، بدأت خيوط الشمس تشق طريقها إلى السماء، فاختبأ بين الأشجار محاذراً أن يراه أي إنسان.

لم يكن في جعبته غير عدة طلقات وقنبلة يدوية واحدة، ومن بين الأشجار بدأ يخمن مكان وجوده، لم يطل الوقت، شاهد أحد المزارعين يحمل مسحاة ويسير في طريق جانبي وسط الحقل، ومن على بُعد ظهرت امرأة تسير خلفه.. قفز عبد الله ويده قابضة على سلاحه أمام المزارع فجأة، ارتبك المزارع وألقى ما بيده، ووقف ينظر إلى هذا المارد الذي

بزغ له من عنق الصباح مرتدياً لباس المقاتلين المموه بلون الأرض والمزروعات فقال: "أية ريح طيبة تلك التي حملتك إلينا هذا اليوم".

اقتربت المرأة وظهرت لهما من خلف شجرة برتقال، أضاف المزارع: لا تخش شيئاً.. هذه زوجتي تحمل طعام الإفطار.

رجفت المرأة عندما رأت رجلاً ملثماً، ثم استدركت أنه من المقاتلين فقالت: أهلاً بالرائحة الطيبة.. كيف وصلت هنا؟

- ما اسم هذا المكان؟. سأل عبد الله.
- أنت في بساتين أريحا يا بني. أجاب المزارع.

أجال عبد الله بصره في الفضاء وبين البساتين ويده قابضة على زناد بندقيته.. فقالت المرأة: هيا يا عبد الله قبل أن يأتي بقية المزارعين.

رجف عبد الله حامد، لكنه عرف أن المزارع اسمه عبد الله أيضاً، فقال الأخير: لا تخف يا أخي وتوكل على الله، تعال نتدبر لك بعض الثياب غير هذه الملابس قبل أن يأتي أحد، فتصبح خطراً علينا وعلى نفسك.

اطمأن عبد الله إلى المزارع وزوجه، وسار معهما حتى يتدبرا أمره، لكنه سأل المزارع: ما الذي يجعلني أثق بك وأصدق أنك ستساعدني!؟.

نظر المزارع في عيني الفدائي وقال: الثقة، الخير بين الناس لم ينقطع بعد.

لم يطمئن عبد الله تماماً، أخفى سلاحه تحت ثيابه وتناول المسحاة من يد المزارع، وسار محدودب الظهر متخفياً، ماراً ببعض المزارعين الذين تفرقوا يجمعون أرزاقهم دون أن يبدو له أي اكتراث.

في بيت المزارع جلس عبد الله حامد يفكر بطريقة توصله إلى شرقي النهر ثانية، لكنه سرعان ما تذكر أن في أريحا ما يعيده إلى أُنسه وصفاء ذهنه ونفسه.. فعاد بذاكرته إلى الوراء يوم أن قادته قدماه إلى أريحا برفقة سهير عندما قامت بزيارة خالها أبي حامد، وعندما شعر بفارق الأيام، أحس أن ما بين يومه هذا ويومه السابق لا يحسب بالأعوام، وإنما بالدهور.

دفعته ذكريات الماضي للانطلاق وسط الحقول.. أخفى سلاحه وثيابه بعد أن اطمأن أن المزارع لا يراقبه، ثم راح يتمشى غير آبه لما يترتب على ذلك من عواقب.. وجد قدماه تقودانه إلى حديقة دخلها ذات يوم برفقة سهير، فدخلها قاصداً

إلى مكان يعرفه جيداً.. ما أن وصل الشجرة التي أظلته يوماً ما، حتى انحنى ليشاهد خطوطاً حفرتها يده وسط قلب اخترقه سهماً.. اهتزت مشاعره وهو يتذكر كل لحظة مر بها مع سهير قبل سفره.. فما زال يذكر يوم أن تهرّبت منه بعد أن أخبرها عن موعد سفره، واعتذرت عن لقائه عندما طلب رؤيتها عن طريق الهاتف، قائلة إنها تنوي زيارة خالها صباح اليوم التالي في أريحا.. طلب منها أن يرافقها.. ترددت في البداية، ومع الفجر كان يستقل حافلة برفقتها إلى أريحا.. شعرت أنها لا تستطيع مقاومة هذا الحب الجارف، ومع ذلك أحست بغيوم الفراق السوداء تتلبسها، وتحفر أقنية من الحزن تملؤها دموع الفراق.

في ذلك الصباح كانت الشمس في ولادتها تبسط أسارير النور على الكون وتتسلل بين الأشجار، كأنها تسترق السمع لما يقوله النسيم للأوراق.. وكما تعانق الجذور التربة، تعانقت أيدي العاشقين.. وانطلقا عبر الحقول في طريق السعادة جنباً إلى جنب مع شمس الحب المشرقة في سماء قلبيهما الصافية، يتنشقان هواء نقياً، جلسا تحت شجرة استطالت أغصانها خطوطاً مستقيمة وأرخت ظلالاً بشكل جذاب.. اتكأ صلاح على جذع الشجرة، فاقتربت منه سهير لتوحد جسديهما كما

وحد الحب قلبيهما.. وأخذا يسترقان الابتسامات والقبلات، وكأن القدر في غفلة عما يفعلان.

أدار صلاح وجهه إلى جذع الشجرة، أخرج مدية صغيرة من جيبه، وأكبّ على الجذع نحتاً حتى صنع قلباً يخترقه سهماً، ثم دفع فيه حرفين هما س، ص، وكتب تحت الرسم تاريخ العام ١٩٦٥م، وتراجع ينظر ما صنعته يداه، فابتسمت سهير وهمست بصوت خافت "يا حبيبي"، وتجمدت الكلمات على الشفاه حين تحاورت العيون.. ثم سارا بلا وعي بين الحقول يتناجيان وكأنهما شاعران أو عصفوران يغردان.

تناست سهير زيارة خالها وقادتهما طريق متعرجة بين الجبال العالية إلى دير قرنطل، فدخلاه بخشوع لرهبة المكان وقداسته وعظمة بنائه.. دلفت سهير إلى حيث تمثال العذراء، نظرت إليها ورفعت يديها قائلة: "أيتها السيدة الجليلة.. اسهري على هذه الحب الكبير، وباركيه، وادعي له أن يبقى خالداً على مر الأيام".

قبل مغيب الشمس، تذكرت سهير المهمة التي جاءت من أجلها إلى أريحا.. وعندما افترقا أخفت وجهها عن صلاح وأسرعت نحو بيت خالها وهي تحدث نفسها "يا لي من حمقاء.. لقد ذعرت عندما علمت أني سأفترق عنه في نهاية

النهار!، فكيف عندما يسافر!، أي مصير هذا الذي ينتظرني بعده!".

أسبوعان مرا ولم يكحل صلاح عينيه برؤية سهير تلك الفترة.. اندفع إلى المكان الذي كانا يلتقيان فيه عند أسوار القدس الشرقية.. انتقى مجلساً عزيزاً على نفسه وجلس يعيد ذكريات غزت قلبه وحفرت فيه أقنية من الأمل.. اندفعت صورتها إلى مخيلته، حدّق في الصورة، ارتجف وكاد يُغشى عليه عندما تقدم طيفها ولامست يدها صفحة وجهه.. وما أن شعر بحرارة كفها حتى أخذ يلثمها غير مصدق أن سهير تقف أمامه، فقال مشدوهاً: "أنا لا أصدّق ما أرى، هل أنا في حلم أم في يقظة".

- أنا التي أعيش الحلم، شعرتُ بشوق إليك، ولا أدري كيف قادتني قدماي إلى هذا المكان بلا وعي، ولعل قلبي هو وحده الذي قادني.. فوجدتك هنا.
- هذا دليل على أن حبنا عظيم، وأن الأقدار لن تفرقنا.

تعانقت الأرواح العاشقة لساعة كاملة ذلك اليوم قبل أن يهزهما القدر بعصا الفراق.. شعرا أنهما غريقان، وحين دنت ساعة الموت تعلقا بالحياة وطلبا النجدة، تشابكت الأيدي تود الالتحام، وقاما يتمشيان ويده بيدها في شارع عريض يمتد

إلى تلة قريبة، كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر عندما جلسا ينظران إلى التلال الخضراء عبر الأفق الواسع باتجاه الغرب، فلسطين كانت تتراءى لهما جنة الدنيا، يحدقان بها عن بعد ولا يستطيعان الإبحار بأرضها إلا من خلال الذكريات.. نظرا طويلاً.. ثم تلاقت العيون من جديد، فنسيا ما يدور بخلديهما.. ضغط على يدها وقال: كم أحبك يا سهير.

أضاف صلاح أن مشاعره اهتزت من جديد وهو يسترجع تلك الأيام قبل سفره إلى أستراليا.. سرت قشعريرة في جسده وحدث نفسه "ربما كانت سهير في القدس.. فأنا لم أرها مع الجموع المشردة.. لِمَ لا أذهب وأتأكد بنفسي؟".. وسرعان ما وجد نفسه يتجه إلى موقف السيارات ليستقل سيارة إلى القدس.

في الشارع المؤدي إلى باب العامود، راح يتمشى ويخفي وجهه بين المارة، بدا له أن كل شيء في المدينة في طريق التغيير إن لم يكن قد تغير بعد، اقترب من بيت يوسف، شاهد طفلاً يلاحق كرة، ظهرت امرأة وراحت تنادي الطفل بلغة غريبة لا يتقنها، راقبها عن بعد ولم يجرؤ على الاقتراب، خمن أن أحد المستوطنين احتل بيت يوسف وأقام فيه.. شعر في قرارة نفسه أن سهير ضاعت منه إلى الأبد.. غادر

المكان والحنين يحرق مهجته، وتمنى لو لم يأت ليرى صور الإرهاب المتمثلة في هذا المكان، وفي طريقه عرج إلى بيته الذي طالما اشتاق إليه، وفي مخيلته أطلال حريق وبقايا صور، لكنه فوجئ بالبيت وقد أعيد إصلاحه من جديد، وفي اللحظة التي همّ بها بدخول البيت شاهد أحد المستوطنين يتربع على مقعد في حديقته، وقف مشدوها حزيناً يتساءل "أية مصيبة حلت بنا؟.. ما أعجب تقلبات الأيام وأغرب ما تأتي به الأقدار؟، ما هذا الذي يحلل لغيرنا ما لنا، ويحرم علينا كل شيء حتى حلالنا!.. إنها القوة، أجل القوة ولا شيء غير ذلك.. لكن لا، سأزور هذا البيت وأدخله يوم أن أدخل القدس منتصراً مرفوع الرأس".

أنهكه التعب وهو يحدث نفسه، شعر أن معالم المدينة قد بدا عليها التغيير، التغيير شمل قاطنيها أيضاً، فلم يعرف منهم أحداً.

شارفت شمس النهار على الغروب، فجأة ظهرت أمامه في الشارع دورية إسرائيلية تستوقف المارة وتدقق في بطاقاتهم الشخصية، انحنى جانباً وتراجع إلى الوراء، سار في طريق فرعية ضيقة قادته خارج المدينة من الجهة الشرقية، وعند المساء بدأ يشق طريقه صعوداً إلى مرتفعات بلدة العيزرية،

وقبل أن يفقد ظله فيها، أخذ يبحث عن عربة تقله إلى أريحا، لكنه لم يجد، إذ تناثر رجال الدوريات الإسرائيلية في كل مكان بحثاً عن رجال المقاومة.. عرج على مقهى قريب وراح يفكر فيما سيفعله.

قاربت الساعة التاسعة مساء، انسل خارجاً دون أن يلحظه أحد، واختفى عبر الشارع المتجه شرقاً تاركاً وراءه كل ذكرياته، بعد أن صدمته المفاجأة المذهلة عندما رأى نفسه غريباً وحيداً في البلد الذي عاش فيه طيلة عمره.

أنهكه التعب وهو يجر قدميه بين الجبال بمحاذاة الشارع العام، حتى لا يضل الطريق، استلقى بعيداً عن الأعين في الظلام وأسبل عينيه محاولاً التشبث بالنوم في سبيل الراحة لدقائق معدودة، لكن القدر تخلى عنه تلك اللحظة عندما ظهرت دورية في المرتفع الغربي المقابل له تشق طريقها باتجاه الشرق، فقام متناسياً تعبه وجوعه، يلفحه الهواء البارد الذي كان يهب بين وقت وآخر يلسعه ويجمد عروقه، وسار يخف الخطى باتجاه الشرق.

***

عاد المزارع يحمل الطعام إلى ضيفه تلك الليلة، فلم يجده، وضع طبق الطعام وعاد أدراجه إلى مكان عمله، يرقب كل

من يحاول الدخول إلى مزرعته، غير آبه بقرارات وأحكام جيش الاحتلال التعسفية.

عند المساء، هرع ثانية إلى مكان المقاتل، لم يجده أيضاً، وفوجئ أثناء خروجه بدورية إسرائيلية تقترب منه تستوقفه وتفتش بيته، وعندما خرجوا من البيت كانت علامات الخيبة والفشل بادية الوضوح على وجوههم، وانطلقوا إلى المزرعة المجاورة بعد أن خلفوا وراءهم كل ما يثير الحقد عليهم.

حمد المزارع ربه على أنهم لم يجدوا أحداً، لكنه تساءل في قرارة نفسه عن مصير ضيفه؟، وفكر بالبحث عنه ليخبره عن أمر الدورية، لكنه تباطأ وجلس يلف سيجارة هيشي، اقتربت منه زوجته وقالت: الحمد الله أنهم لم يجدوه. "واستدركت" لكن ما الذي دعاه للرحيل؟، ألم يأمن جانبنا نحن الذين ساعدناه!، أم أنه كان يعرف بأمر الدورية؟.

لم يتفوه المزارع بحرف.. تنهد بعد فترة صمت وقال: "ليكن الله بعونه". وساد الصمت بينهما من جديد، إلى أن قاما إلى النوم في ساعة متأخرة من الليل.

مع خيوط الفجر قام المزارع يتوضأ استعداداً للصلاة، وإذ به يشاهد شبحاً يتنقل بين الأشجار يتجه نحوه، وهو يترنح

ترنح الشارب الثمل من التعب، وعندما تبينه أسرع إليه قائلاً: الحمد لله على سلامتك، والله كانت قلوبنا معك.

كان عبد الله حامد تعباً جداً، فلم يتكلم، أضاف المزارع: أين كنت طوال هذه المدة؟، هل كنت تعلم أن الجنود في أثرك حتى اختفيت عن هذا المكان؟.

رجف عبد الله وصحا من غفلته عند سماعه كلمة الجنود، نظر صوب المزارع وقال: ماذا تقول، هل الجنود هنا؟

- لا، رحلوا منذ مساء البارحة، كانوا يبحثون عن الفدائيين.
- إذن لا بد من الرحيل.
- لكنهم قريبون من هنا، هيا تعال معي إلى الداخل وسآتيك بأخبارهم أولاً بأول.

كان التعب قد أنهك عبد الله حامد وأخذ منه كل مأخذ، ألقى بجسده على الفراش وغاب في سبات نوم عميق، بينما قامت زوجة المزارع تعد طعام الإفطار..

قرابة الساعة الحادية عشرة صحا من نومه، فأسرع المزارع إليه يقول: لن تستطيع الرحيل هذا اليوم، فالجنود يملؤون المزارع ويقيمون الحواجز على الطرقات.. وولجت

زوجته تحمل الطعام قائلة: "إن شاء الله ارتحت في نومك"، وأضافت وهي تضع طبق الطعام أمامه "هذا لك، كل يا بني".

قال المزارع وهو يشارك ضيفه طعام الإفطار: الله ينصركم على الأعداء.. ليتني أستطيع حمل السلاح مثلك.

قال عبد الله: أنت أفضل مني وأقوى إذ تساعد أمثالي هنا.

- لقد أذلنا الاحتلال وحرمنا من كل شيء.
- اصبر ولا شك أن النصر سيكون حليفنا مهما طال الزمن، فلن نتركهم يهنؤون بما أخذوه منا قهراً.. سنحرمهم الراحة والأمن والسلام، وتلك أهم ميزة في الحياة.

***

مساء اليوم التالي استعد عبد الله حامد للرحيل، وطلب من المزارع أن يدله إلى أقرب طريق للنهر.. كانت الساعة تقترب من السابعة مساء عندما بدأ يشق طريقه إلى الشرق، وكلمات المزارع تدوي في أذنيه: "الله ينصركم على الأعداء، فأنتم رجال هذه الأمة، بكم لن نُخذل ثانية ولن نُهزم أبداً".

كان عبد الله واثقاً من نفسه، واثقاً بأن الله لن يتخلى عنه، لكنه لم يدر كيف مرّ الليل سريعاً وهو في أرض قاحلة كيفما ابتعد عنها هابطاً أو صاعداً، عادت أضواء أريحا تتلألأ

خافته بعيدة.. عند بزوغ الفجر ركن في كهف صغير اعتقد أنه آمن ولن يصله أحد، إذ كانت الأرض خاوية جرداء تملؤها الصخور المبعثرة اللامعة، وعند المساء راح يشق طريقه ثانية باتجاه النهر، ألقى بجسده المتعب في مياه النهر الباردة، وسبح حتى وصل حافة النهر الشرقية وسلاحه معلقاً في رقبته، وهناك سقط على الأرض لا يقوى على الحراك.

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة صباحاً عندما لفحته حرارة الشمس، أفاق مذهولاً وكأنه يعيش في حلم مرعب.. وحين همّ بالوقوف خانته قدماه، فاستعان بيديه ليكمل رحلته بين الأشجار حيث ترك سلاحه المعلق تحت إبطه خطأ متعرجاً على الأرض، إلى أن توقف تحت حربة سلاح تلامس رقبته، وصوت يقول "قف مكانك".

***

بعد أن انتشر خبر عودة عبد الله حامد سالماً.. وبعد أن قص حكايته، أحببتُ أن أبعده عن غور الأردن الذي راح يشتد لهيب القتال فيه، فقلت له بأن يستعد لدورة تدريبية في العراق، لكن عليه قبل ذلك أن يرافقني في إجازة لزيارة الأهل في مخيم البقعة.

مع غروب الشمس، وعلى غير عادتها، هبت رياح باردة على منطقة الأغوار، عند المساء ظهرت بعض السحب الداكنة الكثيفة بلون الرصاص، تلبّدت فوق حافة النهر الكئيبة، ثم تمددت ببلادة الكسول فوق الرؤوس، منذرة بتساقط الأمطار، إلى أن هبت عاصفة مشحونة بالرطوبة، فثارت الرياح بشدة، وجرت سيول هادرة من المطر الغزير الذي سقط حسب ما كانت تُسيّره الرياح وبأي اتجاه.. فقرر أبو محمود المبيت عند الرفاق في القاعدة تلك الليلة، بعد أن تعذر عليه وعلى وليد العودة من القاعدة إلى بلدة الكرامة.. وبات الجميع في الكهوف بين الجبال أو في الخيام المتناثرة بين الأشجار..

صباح اليوم التالي استقل أربعة مقاتلين سيارة جيب وغادروا القاعدة باتجاه بلدة الكرامة، ثم راحوا يسابقون الزمن نحو المرتفعات الجبلية حتى وصلوا مخيم البقعة، وما أن توقفت السيارة على جانب الشارع حتى ترجّلتُ منها مع أخي صلاح، بينما واصل أبو محمود ووليد طريقهما إلى عمان.

***

لم تظهر الشمس منذ صباح الثالث من كانون الثاني، إذ اختفت وراء الغيوم الكثيفة المتراصة، والعاصفة الباردة التي تجتاح المنطقة.. من على بعد مسافة قصيرة ظهرت الخيام وقد انتفخت جوانبها من شدة الرياح التي تعصف بها، فأسرعتُ أخف الخطى خلف أخي صلاح نحو خيمة الصمود.

كان رجال المخيم يلعنون ويزمجرون حتى يعيدوا نصب خيامهم من جديد، لكن الخيام سرعان ما تعود للانتفاخ والسقوط.. زاغ صلاح بين أطفال يرتجفون، واختفى داخل خيمة وقف أهلها يرحبون به، متناسين برودة الشتاء التي بدأت تلفح أجسادهم.. وامتزجت دموع الفرح بلقاء الأحبة عندما شاهدني والدي أقبل يد والدتي بعد غيبة طويلة.

حمد والدي الله على سلامتي وطلب مني أن أقص عليه قصة غيابي.. بينما راحت والدتي تحضنني وتذرف الدموع وكأني عائد من الآخرة.. لكن الظلمة ازدادت قتامة وبدت نذر عاصفة هوجاء في طريقها إلى المنطقة، مزقت الخيام وأقلقت هدوء ودفء من طلبوا الحماية بداخلها، فأوى الجميع إلى فراشهم يطلبون النجدة والحماية من غضب الطبيعة عليهم، لكن أنّى لهم الهدوء والمطر يتساقط بغزارة،

والعاصفة ما تزال في أوج احتدامها، حتى شعر أهل المخيم بأن غضب الله تكاثف مع غضب الطبيعة عليهم.

تلك الليلة قال والدي: "بالأمس كانت الأمطار نعمة من الله، إنها سر الكون، لكنها اليوم باتت غضباً علينا من السماء، لكن لا اعتراض على مشيئة الخالق، إنه يعلم ما بنفوسنا ما لم نعلم"، وراح يستغفر الله.. كانت الطبيعة هي التي تزمجر هذه المرة وتصرخ، لا المدافع والقنابل وهدير الطائرات.. الطبيعة هي الغضبى، وهم الناس البسطاء الذين تمنوا مثل هذه الأمطار في أراضيهم الخضراء، لا هنا في خيامهم البالية لتهدمها وتشتت من فيها، وتبعثرهم تحت حبات الرذاذ المتساقطة بعناد.

وفيما كنت أقص حكايتي على مسامع والديّ منذ هروبي من سجون الاحتلال حتى وصولي إلى مخيم البقعة.. همّ صلاح بالرحيل والعودة إلى الأغوار، لكنه عاد وتراجع أمام قسوة الطبيعة، وسمعته يقول وكأنه يحدث نفسه "كيف لا أستطيع البقاء ليلة واحدة بين والديّ وأخوتي!، أيتحملون العذاب ويتقاسمون البرد وأنا لا أحتمل ذلك!، أية جريمة ارتكبها العرب والصهاينة معاً حين تركوا المهجّرين هنا في الخيام، بينما سمحوا لأنفسهم أن يعيشوا حياة مترفة في

القصـور، لا يشـعرون بـالبرد، ولا يـدرون كيـف يلسـعنا الصقيع؟".

صـباح اليـوم التـالي بزغـت الشـمس وتحسـن الطقس، قـام المهجّرون بإصلاح خيامهم، شدوها بالحبـال حتـى لا تسقطها الرياح ثانية، بينما قام البعض بجمع الملابس والمأكولات لمن نكبتهم الطبيعة، وجرفت السيول مـا فوقهم ومـا تحتهم.. عند المساء تجمهر بعض الأقارب في خيمـة والـدي لتهنئتـه بعـودة ولديه، وراح بعضهم يسأل صلاح عن الطريق التي توصلهم لحمل السلاح مثله.

****

عبد الله حامد

عدتُ من العراق بعد دورة تدريب استمرت أكثر من ثلاثة أشهر، توجهت بعدها إلى الأغوار مباشرة.. في الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي تحركت مجموعة من الفدائيين متسللة عبر النهر باتجاه مستعمرة أم نخلة، كانوا ثلاثة عشر، وكنت أنا آمر المجموعة أتقدمهم.. أحاطوا بالمستعمرة من الشمال والشرق والجنوب، للتصدي لقوات النجدة المحمولة التي تطلبها المستعمرة أثناء القصف.

في الحادية عشر قبل منتصف الليل، انطلقت قذائف الهاون من كل اتجاه تدك قلب المستعمرة.. وفي نفس الوقت تسللتُ مع فرقة الاقتحام برفقة ثلاثة مقاتلين، وأخذنا نمطر المستعمرة بنيران الأسلحة ونطهّر القاعدة من دنسهم.

رغم ضراوة المعركة وشراستها، استطعت أن أغرس العلم الفلسطيني على الأسلاك الشائكة في المستعمرة، بين دوي المدافع وأزيز الرصاص.. وخلال ذلك سقطت قذيفة قرب أحد الرفاق فأصابته إصابة قاتلة، ولم أستطع مساعدته لكثافة النيران.

تجمع الرفاق استعداداً للعودة، وتبيّن أنهم تسعة فقط، بينهم جريحان، بعد أن أستشهد الآخرون وأوقعوا في الأعداء أكثر

من عشرين إصابة بين جريح وقتيل، بالإضافة إلى تدمير دبابتين ونصف مجنزرة، ونسفوا جزءاً كبيراً من مستعمرة أم نخلة.. عاد الفدائيون يتخفون كالأشباح بين الأشجار باتجاه النهر تمطرهم المدفعية الإسرائيلية بنيران القذائف، فترد عليهم مدفعية الجيش الأردني ورجال المقاومة من ضفة النهر الشرقية بضراوة.

كان حزن الرفاق على شهدائهم كبيراً، فأقسموا أن يواصلوا الدرب حتى النهاية.. وعندما عبرنا النهر عائدين، كانت مجموعات من الفدائيين بانتظارنا عند عبور النهر، وعند ذلك سمع هزيم الرعد الطويل، وهبت رياح باردة تفوح منها رائحة المطر وكأنها تنذر بهطوله.

عند المساء توقفت سيارة جيب أمام القاعدة، ترجّل منها وليد ليزف نبأ انتقالي إلى قاعدة جديدة بأمر من أبي محمود.

****

يوسف

فـي القاعـدة كنـت أتمشـى وانتظـر عبـد الله حامـد بفـارغ الصـبر، توقفت السيارة وترجل منهـا مـع وليد، نظر نحـوي بدهشة، شعرت أن الدنيا دارت في عينيه وهو يرانـي بلباسـي المرقط أتقدم نحوه وأستقبله بالأحضان، قلت وأنا أعانقه:

- لقد افتقدناك كثيراً يا صلاح حتى اعتقدنا أنك من الأموات بعد أن بحثنا عنك ولم نجدك.
- بحثتم عني!، أنا لم أترك مكاناً إلا وطرقتـه، حتـى القدس ذهبت إليها من أجلكم.
- من أجلي يا صلاح أم من أجل خطيبتك!. قلت وابتسمتُ في وجهه.
- لم يعد اسمه صلاح، إنه عبد الله حامد. قال وليد
- أعرف، فقد حدثني أبو محمود كثيراً عنه، حتـى مستعمرة أم نخلة تعرفه جيداً.. قل لـي يـا صـلاح، آسـف يـا عبـد الله حامد، كيف أصبحتَ بين ليلة وضحاها بطلاً؟.

أخفض عبد الله رأسه وقال: الأيام، الحـرب والنكبـة.. كنـت تائهاً يا عمي في خضم وغمار هذه الحياة.. أبحث عن الفرح والسعادة وعن الحب ناسياً بل جـاهلاً أن هنـاك وطنـاً مسلوباً

وشرفاً ضائعاً، وحياة بلا معنى تافهة بغير الكرامة والأرض، كنت هائماً لا أعرف أن وطني دنّسه الأعداء، حتى يوم حرب حزيران، يوم أن اهتزت أعماقي فكفرتُ بالخير، وبما يسمى الحياة الهادئة في ظل أرض مغتصبة.. لقد جعلتني الحرب وما قاله والدي عن أيام النكبة ويوم تشرد الشعب الفلسطيني من وطنه أنقب في أعماقي عن الحياة الشريفة، فوجدت أنها لن تكون إلا بعودة الوطن.. كانت دماء الشهداء تناديني للانتقام لها، للثأر، لاسترداد الأرض، فأقسمت أن لا أعيش إلا في ربوع القدس وعودة أريحا ونابلس وحيفا ويافا، وكل شبر من أرضنا العربية المقدسة.. أرأيت ما كنت يا عماه؟، كنت تائهاً أبحث عن نفسي، وعن حبي بين جموع النازحين.. فوجدت الناس المشردين على حقيقتهم.. وجدت المهجّرين من النساء والشيوخ والأطفال يستغيثون بالشباب لعودة كرامتهم وأرضهم.. وما أنا إلا واحد من الشباب..

قاطعته: أنا فخور بك يا صلاح وشرف لي أن تكون خطيب ابنتي.

***

صباح اليوم التالي وقبل أن يغادر وليد القاعدة طلبتُ منه أن يبلغ تحياتي إلى أبي محمود، فقال عبد الله: أتذكر يوم أن التقيت بأبي محمود في بيتك قبل الحرب، لم أكن أعرف أني سألتقيه ثانية في الأغوار..

- إنه من أعز أصدقائي، وقد عرفته قبل حرب حزيران بسنوات.. كنا نعمل معاً من أجل عكا وحيفا ويافا والوطن المفقود.

طأطأ عبد الله رأسه وكأنه يعاقب نفسه نادماً على ما أضاع من عمره قبل أن يلتحق بالثورة.. لكني قطعت حبل أفكاره وأضفت:

- كان الجميع نائمين في ذلك الوقت، يرددون سنحرر وسنقاتل وهم لا يفعلون شيئاً، لكن تأكد أن فلسطين لن يعيدها غير أصحابها الشرعيين، فهي أمنا ونحن أبناؤها، وكما قيل لا يحك جلدك غير ظفرك.

***

مع بداية قصف الرعود، بدأ قصف المدافع يُدوّي عميقاً، واستمر يتحف المقاتلين جل أمسياتهم عازفاً لهم موسيقاه الهادئة طوراً، والصاخبة أطواراً، ترددها الجبال والوديان.

على ضوء السراج، جلس عبد الله حامد قربي داخل كهف، وغاص في صمته، بعد دقائق تحدث بصوت خافت "هكذا شاءت النكبة لهذا الشعب ليعيث متخبطاً في شعاب الأرض، لا يعرف له مقراً.. حتى التقى بنفسه من جديد في الأغوار وفي الأحراش، في الكهوف وفي الغابات.. التقى أفراد الشعب الفلسطيني ببعضهم بعد الضياع، ليعلنوا اتحادهم من جديد على شيء اسمه السلاح والعمل الفدائي المسلح، واتحدوا في طريق واحد جمعوا فيه كل الشعب الفلسطيني تحت شعار لقاء الموت من أجل الحياة".

قطعتُ استرساله وقلت: "أنا شديد الاعتزاز والفخر بك يا عبد الله، فكثيراً ما سمعت عن شجاعتك قبل أن أعرف أنك صلاح، وحين عرفت أن صالح أخيك، تمنيت أن تكون قربي في القاعدة.. حتى جاءت الفرصة وأوصيت بنقلك إلى هنا.. إن أم نخلة لن تنسى بطولتك يوم غرست العلم الفلسطيني في أرضها، والموت يتربص لك من كل جانب.. ما زلت أذكر تلك الليلة، كنت أدق الأعداء بمدفع الهاون من هنا حتى تعود ورفاقك سالمين دون أن أعلم أنك كنت آمر المجموعة، لقد عرفت عبد الله حامد قبل أن أراك، فليت كل فلسطيني يعمل ما عملت، ليت الدول العربية تفسح لنا المجال لنحرر أرضنا

بأنفسنا، ولن نحتاج مساعدة أحد، ليتهم يفسحون لنا الطريق حتى نعرف العدو من الصديق.

لو لم يتدخل أحد في قضيتنا منذ البداية، لما تشردنا في هذا العالم بعيدين عن الديار والأحباب، وكنا الآن نجني ثمار البرتقال والزيتون، نحمل المعول والمحراث بدل المدفع والرشاش".

ظل عبد الله صامتاً وأنا أتحدث، تململ في جلسته وأدار وجهه جانباً وقال باستحياء: "قل لي يا عمي كيف حال سهير؟"

ابتسمتُ له وقلت "إنها بخير، فبعد أن قطعنا الأمل بالعثور عليك، نذرت نفسها لتضميد جراح رجال المقاومة، فالتحقت بالعمل ممرضة في أحد مستشفيات الهلال الأحمر الفلسطيني".

قال: كم أنا مشتاق لها، كانت هدفي الوحيد في الحياة، أما اليوم "واخفض رأسه وهو يضيف" فإن أمنيتي الوحيدة أن أعود إلى القدس برفقتها، وإن كنت أعيش من أجل فلسطين، فإن سهير هي التي أمدت لي النفس الطويل للوصول إليها.

وكأنه أدرك أنه يخاطبني فصمت

- أخبرني يا عبد الله كيف حال والديك؟

- بخير من الله، لقد تركتهم تحت رحمة الطبيعة في مخيم البقعة..

قال ذلك وأسبل جفنيه، متمنياً لو يمضي الليل سريعاً لينبلج النهار حتى يرى سهير.. لكن خفوت السراج أقنعه بأن الليل طويل، فاحتضن سلاحه، واتخذ ركناً يرتاح فيه بانتظار صباح اليوم التالي.

***

فيما كنت أتفقد المجموعات الموزعة في القاعدة، انبلج الصباح على دوي الانفجارات وهدير الطائرات في الجو، بينما ظهرت مجموعة من المقاتلين العائدين من غربي النهر والرصاص يلاحقهم.. أسرع عبد الله ورفاقه يطلقون النار باتجاه الأعداء على الضفة الغربية من النهر، حتى استطاع بقية المقاتلين عبور النهر بسلام.

وقفتُ أحث المقاتلين على الاستعداد لشن هجوم معاكس إذا دعت الضرورة، بأن يتسلل بعض المقاتلين لاجتياز النهر وينشروا بين الأعداء الرعب والدمار، ثم نظرت إلى عبد الله وأومأت له أن يتبعني.

كانت المعلومات السرية تتوارد معلنة أن هناك حشوداً لجنود الاحتلال على الضفة الغربية للنهر، وقال بعض المقاتلين العائدين من عمليتهم الأخيرة، أن مجموعات كبيرة من الدبابات شوهدت تمر بالقرب من أريحا باتجاه النهر.. وعلى أثر ذلك وزعت الكمائن وزرعت الأرض بالألغام على حافة النهر، واستعد المقاتلون لمجابهة جنود الاحتلال وجهاً لوجه.

مع شروق الشمس، ظهرت أسراب من الطائرات المعادية تحلق في السماء، وكأنها تخطط لهجوم وشيك..

في العاشرة صباحاً شوهدت سيارة صغيرة تخترق الطرقات الضيقة بين الأشجار، وعندما توقفت ترجّل منها وليد وزميله القيادي أبو محمود..

قرب أحدى الأشجار وقفت مع أبي محمود نتحدث ونخطط عن الكيفية لمواجهة العدوان المتوقع على القواعد، بينما وقف عبد الله مع وليد يتحادثان.. لعب الهواء بأغصان الأشجار، وقفا ينظران إلى الغرب وفي صدر كل منهما مئات الكلمات المخنوقة، قال وليد: "أتذكر أحمد؟"

- وهل أستطيع أن أنساه، ما هي أخباره؟

- بعثته القيادة إلى بيروت.. وقد وصلتني منه رسالة بالأمس يبعث بها تحياته إليك.
- أتمنى أن أراه في القريب العاجل. وأضاف بعد فترة صمت قصيرة: أنت تعرف أني أحب سهير.. وعرفتُ بالأمس أنها تعمل في مستشفى تابع للهلال الأحمر الفلسطيني، وقد وعدني يوسف بزيارتها هذا اليوم، لكن يخيل لي أني لن أراها أبداً..
- ولماذا لا تذهب إليها؟. قال وليد مقاطعاً.

قال عبد الله وفي صوته حشرجة خافتة: لقد ألغيت كل الإجازات، ونحن على أبواب معركة حاسمة كما أعتقد.

نظر وليد إلى صاحبه مندهشاً وكأنه يتفرس ما بأعماقه وقال:

- ستعيش يا عبد الله وستتزوجها بإذن الله..
- لا أعتقد يا وليد، فقد اكتشفت في خبايا نفسي أني أحب فلسطين أكثر منها، لذا لن أتزوجها إلا بعد أن نسترجع الوطن.

صمت وليد قليلاً لا يدري ماذا يقول، ثم عاد يشد من عزم رفيقه: سيعود الوطن وسنحرر الأرض، وستتزوجها يا صديقي، سأخبرها بوجودك.

- لا، لا تخبرها الآن.. أخبرها عندما تتأكد أني لن أراها بعد هذه المعركة.. أما إن كُتبت لي الحياة سأفاجئها بوجودي.
- لا تكن متشائماً إلى هذه الدرجة.
- بالعكس، أنا متفائل، وفخور جداً أن أستشهد وسلاحي في يدي.. لذا أرجو إن كُتبت لي الشهادة أن تخبر أهلي بأني سبقت كل رفاقي لتحرير أرضنا المغتصبة..

قاطعه وليد محاولاً وقف حديث الموت المتدفق على لسانه:

- والله لقد أنسيتني بحديثك هذا أني سأكون معك في المعركة.. سأكون بجانبك هنا.
- أحقاً ما تقول!. قال عبد الله وقد بدت علامات الفرح واضحة على وجهه.
- طبعاً، كنت أتحدث مع أبي محمود في هذا الموضوع قبل أن نصل القاعدة.
- وهل وافق أبو محمود؟.
- كيف لا يوافق وهو نفسه سيشترك في القتال أيضاً.. إنه يعرف أن معركة حاسمة ستقع خلال يومين أو ثلاثة، وستكون أعنف وأشد من حرب حزيران.

***

عبد الله حامد

الطلقات النارية المتقطعة كانت تُسمع من على بُعد قادمة من الجهة الجنوبية، حيث كانت مجموعة من الفدائيين في طريق عودتها إلى قواعدها، بعد أن طاردت تلك الليلة سيارة قائد القوات الإسرائيلية، وأطلقت عليها بعض القذائف، لكنها لم تصب هدفها، عند ذلك أخذت القوات الإسرائيلية تطارد المقاتلين بنيرانها الكثيفة حتى عبروا النهر، والقذائف تزرع الأرض وتتردد بين الجبال والوديان.

مضى الليل بطوله، استرخيتُ قرب يوسف نطلب الراحة من ظلام الليل، حيث ساد الهدوء المشوب بالتوتر وشمل كل المنطقة، والكل على أهبة الاستعداد لإطلاق النار.

استعدت القوات الأردنية للمعركة أيضاً، وراحت ترصد تحركات الجيش الإسرائيلي، بعد أن أيقنت من عدوانه على الأراضي الأردنية..

بعد الظهيرة شوهدت طائرات عدوة تحلق في المنطقة فوق قواعد الفدائيين ومعسكرات الجيش الأردني، إلا أنها لم تطلق النار، كما تعذر أطلاق النار عليها لارتفاعها الشاهق.

في السابعة مساء تقدم الفدائيون باتجاه النهر يحملون أسلحتهم الخفيفة بانتظار العدوان الذي لم يعد مفاجئاً لهم، يرقبونه بكل حواسهم وينتظرون وقوعه في كل لحظة.

مع انسلال الكمائن وترقبها، انتشرت الأخبار تقول أن القوات الإسرائيلية لن تتقدم شرق النهر، وإنما ستطلق نيرانها من الغرب.. فاستعد بالمقابل الجيش الأردني بمدفعيته الثقيلة، وتقدم الفدائيون باتجاه النهر.

جلستُ ويوسف في الليل بانتظار ساعة الصفر، نتأمل الظلام وأيدينا على الزناد.. قمت وتمشيت نحو النهر أرقب حافته الغربية، ثم وقفت قليلاً أتأمل الأشجار والجبال.. النهر يغازل المقاتلين، ترتفع همهمة الأمواج باتجاهي وكأنها تستعطفني شيئاً من دفء جسمي وسلاحي، فلا آبه لها، أهز رأسي وأعود لأنثر عبر نسيم الليل مع يوسف حديثاً يتهادى بين الأغصان فيطربها حتى تهتز وتطلب المزيد.

غارقاً في أحلامي كنت، بينما كان يوسف غارقاً في أفكاره مسنداً ظهره على جذع شجرة، ويديه تعبثان في السلاح لتبقيه دائماً على أهبة الاستعداد.. مرت اللحظات وكلانا غارق في صمته، عاد بعدها يوسف وتمدد على التراب ووجهه باتجاه النهر.. هبّ النسيم فلفح جبهته العريضة ببرودته المشبّعة

بعبق الأعشاب التي شقت طريقها إلى الحياة مع قرب بداية فصل الربيع.

ثمة صوت يتهادى ويشق كنه الليل ممزقاً أغطيته، حاجباً ظلامه، وكحفيف أوراق الأشجار مع النسيم همس يوسف على مسامع من كان خطيب ابنته، فأصبح خطيب الثورة الفلسطينية..

"من آمن بالله فثوابه الجنة، أما من عصي الله ورسوله فقد يذهب جفاء كالأعشاب المائية التي يحملها الزبد الطافي فوق الماء.. لا يعرف على أية صخرة سيتحطم، ولا بأي أرض سينجرف.. مَن يعرف!، من آمن بقدسية عملنا فمثواه الجنة.. ومن لم يؤمن.. مَن يعرف!؟".

تململتُ وكأني أطلب المزيد من يوسف، إلا أن الأخير توقف عن كلامه وصمت، وكأنه يحدس بأن كل لحظة تالية سيستيقظ كل شيء، ويتعالا صوت منسجم في نغمة عذبة صادرة من أفواه الرشاشات وأسطوانات المدافع.

توزّع المقاتلون بشكل كمائن في كل أنحاء المنطقة بجانب ضفة النهر الشرقية، عدا المجموعات القليلة التي بقيت متمركزة في الجبال على مقربة من تجمعات آليات الجيش الأردني، تواردت الأنباء في الساعة الثانية بعد منتصف الليل

تقول أن القوات الإسرائيلية ستجتاز النهر، ولم يكن باستطاعة أحد من المقاتلين أن يتجنب الصدام المسلح بينه وبين المجنزرات المعادية، بين الرشاش ودبابة الباتون الأمريكية.

في الساعة الرابعة من صباح الحادي والعشرين من آذار سمع المقاتلون هدير الطائرات يمزق فجر الصباح، وتزرع المنطقة بقذائفها المحرقة.. وفي اللحظات التالية كانت مئات الطلقات تنطلق في الفضاء تمزق صفوف الطائرات المغيرة.. فترد المدافع من ضفة النهر الغربية على مصادر النيران الملتهبة في الشرق قرب معسكرات الجيش الأردني.. وللحظات عديدة لم يجد المقاتلون أحداً يطلقون عليه النار، كانوا يرقبون التحركات الإسرائيلية الجوية ويشاهدون أسراباً من طائرات الميراج تحلق في الجو، تحمي الطائرات المروحية التي تنقل المظليين وتسقطهم قرب بلدة الكرامة خلف خطوط المقاتلين.. وفي نفس الوقت شوهدت الجسور الخشبية والحديدية المتحركة تنتشر على ضفاف النهر في أكثر من موقع لتمتطيها الدبابات والمجنزرات الإسرائيلية، وتشق طريقها بين الأشجار باتجاه الشرق، مخترقة كمائن الفدائيين المغروسة في كل مكان.

فـي بلـدة الكرامـة وضـواحيها بـدأت معركـة الشـرف والكرامـة، وحـين تـأزم القتـال اشـتبك المقـاتلون مـع جنـود الاحتلال بالسلاح الأبيض.. أبيدت فرقة المظليين عن آخرها فـي الوقـت الـذي تقـدمت فيـه الـدبابات إلـى نفـس المكـان، وحاصرت المقاتلين بين الأشجار.

علـى أرض الكرامـة، وعلـى حافـة النهـر الشـرقية، وقـف الجـيش الأردنـي بكامـل قواتـه جنبـاً إلـى جنـب مـع الفدائيين يصدون القوات الغازية، سطروا بدمائهم قصصاً من البطولـة في معركة غير متكافئة، استبسل الجميع يقاتلون ويقاومون بسـلاحهم الخفيـف دبابـات الأعـداء الثقيلـة.. اخـتلط الحابـل بالنابـل.. ُدمّـرت عشـرات الـدبابات، وقتـل عشـرات الجنـود المعتدين في دباباتهم المحترقة.

استمر القتال حتـى السـاعة الثانيـة بعد الظهر، وأنـا أرافق يوسف نصد العدوان بشجاعة وجرأة لم يسبق لها مثيل، لكن الطـائرات أخـذت تقصـف موقعنـا بغـزارة، أصـيبت صـناديق الذخيرة وتفجرت، وانسحبنا على غير هدى، وكل يدافع عن صاحبه ويطلب الشهادة.

في الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم تأزم الموقف عندما ضـرب الجيش الأردني ورجال المقاومة طوقاً حول الدبابات المتقدمة

يدمرونها واحدة بعد الأخرى، لم يعد الأعداء قادرين على التحرك أو الإفلات من هذا الطوق.. دفع جيش الاحتلال بعشرات الطائرات تقصف كافة القوات المتمركزة على ضفاف النهر الشرقية، حتى يخيل للناظر أن الأعداء فقدوا رشدهم وهم يقصفون المواقع الأردنية والجيش الأردني بعنف لا مثيل له، مع قصفهم لقوات الفدائيين المحيطة بالمجنزرات.. وعندما التقيتُ بيوسف ثانية، كنت مصاباً بذراعي، لكني لم أتوقف عن القتال، كنت ويوسف نصرخ "الله أكبر، الله أكبر".. ونطلق الرصاص.. فنسمع أنين جنود الأعداء قبل أن يشهقوا أرواحهم.. نعاود الكرة مع غيرهم حتى لم نجد من نقاتله غير ارتال الدبابات المصفحة بمحاذاة النهر، والطائرات المروحية تحاول رفع الدبابات بواسطة الحبال لتنقلها إلى ضفة النهر الغربية.. فجأة ظهر أمام يوسف مجموعة من جنود الأعداء، واخذوا يطلقون عليه النار من كل جانب.. قاوم ببسالة، وحين سقط كان قد قتل عدداً منهم، تراجع أحدهم إلى الوراء وهو يطلق النار على يوسف من رشاشه، وكما ينزلق حجر بين الصخور هوى الجندي بسرعة باتجاه النهر.. تحطمت أشلاؤه، وسرعان ما اختطفته موجة وأغرقته في غياهب الجبّ، وما لبث أن اختفى في لجة اليمّ.

سكرات الموت وحشرجته الخانقة تغلبت على أنفاس يوسف، غابت الدنيا عن بصره، واكتنف النهار ظلمة لا مثيل لها في عينيه، فقال هامساً وكأنه يحدث نفسه مع أنفاسه الأخيرة، "إنهم أغبياء.. يقاتلون من أجل دمار الآخرين، ولا يعلمون أن هذه أرضنا التي نفديها بأرواحنا.. مَن يقاتل في سبيل أرضه وحريته وكرامته سينتصر حتماً، الأرض لن تتغير.. أما الحياة فلها ألف مكان ولها ألف أرض.. ليرحلوا إلى أرض أخرى، أو يعودوا من حيث أتوا، ويتركوا لنا هذه الأرض.. إنها أرضنا التي سقيناها بدمائنا وبللناها بعرق أجسادنا.. إنه وطننا ولن نفرط بذرّة من ترابه".. وعادت زفرات الروح تثقل كاهله فتشده إلى الأرض شداً.. فغرز أظافر أصابعه في حفنات التراب، وكأنه يحاول الانغراس بها لئلا تفلت منه أو يفلت منها، وأضاف: "إنه مُضحك مَن لا يعرف شيئاً عن التراب.. لقد عاش مخدوعاً من لم يستطع أن يحب الأرض والوطن".. وسرعان ما شهق روحه فوقع رأسه على الأرض.. وعادت الدنيا تبرق في عينيه بشعاعها الأصفر معلنة بداية الليل.. ثم أظلمت في عينيه ثانية إلى الأبد.

اندحر الأعداء مع صبر وشجاعة المقاتلين وصمودهم، وقرابة الساعة العاشرة مساء كان الرجال يُطهرون آخر البقاع التي دنّسها جيش الاحتلال، وانتهى القتال في يوم المعارك الطويل، بعد أن سطّر الجيش الأردني والمقاتلون بدمائهم صفحة جديدة في عهد الثورة من جديد.

****

سهير

صباح اليوم التالي، غصّت شوارع عمان بالجماهير جيئة وذهاباً يهتفون بحياة الأبطال حيناً، وينددون بالأعداء والاحتلال الغاشم أحياناً.. وكما امتدت يد الرحمة تجمع الجرحى في المستشفيات.. امتدت يد القدر تجمع في باطن الأرض الشهداء.

قرابة الساعة العاشرة صباحاً كان عشرات الآلاف يملؤون شوارع عمان، متراصين حول الجامع الحسيني الكبير الذي ضم قرابة خمسة وعشرين شهيداً للصلاة عليهم.. ومن بين الجماهير شوهد الفدائيون بلباسهم الأخضر المرقط لأول مرة يحملون السلاح علناً على أرض عمان.

بعد الصلاة انطلقت الجماهير مهللة مكبرة تحمل النعوش على الأكتاف، وكأنها أعلام النصر ترفرف فوق الرؤوس، والسلاح يزغرد برصاصه إلى مقبرة الشهداء.

سارت الجماهير مكتظة تعانق الأبطال، وتنظر إليهم نظرات الإجلال والإكبار.. وما بين الجامع الحسيني الكبير ومقبرة الشهداء وقفت الجماهير لا تستطيع التقدم لكثرة

الازدحام.. إذ لا مجال للحركة إلا لمن حملوا النعوش على الأكتاف مهللين مكبرين.

زغردت النساء، وسالت دموع الفرح على الشهداء وهم يرحلون إلى مثواهم الأخير، والجندي الأردني يمشي مع الفدائي بين الجماهير جنباً إلى جنب مع الشهداء ليودعهم ثم يعود مثلهم شهيداً بعد حين.. تطلعت العيون واشرأبت الأعناق في العالم أجمع متسائلة من هم الأبطال الذين وقفوا في وجه إسرائيل المتفوقة!؟.. وكأنهم نسوا أو تناسوا أنه في يوم من الأيام الماضية، وعلى وجه هذه البسيطة.. اتفق السلاح مع القوى والخديعة فاغتصبوا أرضاً وشردوا شعباً، وقهروا أمة.

وفي الوقت الذي كان يُغرس فيه الشهداء في قمة المجد، كانت إحدى وعشرون طلقة تُطلق تحييهم وتمجّد بطولاتهم، وتنثر الرياحين عليهم مع باقات من الزهور.

في الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم، وبعد أن انسحبت الجماهير المشيعة، تقدمتُ نحو كومة من التراب أهيل الدموع وأنثر عليها باقة من الورود، ركعتُ وبقيت جاثمة حوالي الساعة، قمت بعدها أمسح دموعي وحال نفسي تقول "إلى جنة الخلد يا أبي.. طوبي لك ولهؤلاء الشهداء الأبطال

البـررة.. لقـد عشـت بطـلا واستشـهدت بطـلاً.. قسـماً بـك وبفلسطين التي استشهدت من أجلها ولندائها، أنـي لـن أتوقف عن العمل ولن أتراجع حتى يوم النصر أو الشهادة.. أرقد يـا والـدي بسـلام فـي جنـة الخلـد، وانتظرنـي حتـى أسـطر مثلك بعض سطور المجد.. وداعاً يا أبي يوسف.. وإلى اللقاء".

وقمت أتحامل على نفسي، سرت متثاقلة فـي الطريق إلـى بيتي وحيدة خائرة القوى، لا أدري ماذا أفعل بعد أن حطمتني الأيام، وسلب الموت مني أعز مخلوق في حياتي.

***

طالت أجنحة الليل وتشعبت، وأنـا قابعـة فـي زاويـة مظلمـة متشحة بالسواد، دامعة العين باكيـة الفؤاد، بعد أن فقدت أبـي وضللت طريق خطيبي صلاح.

تململت صديقتي نوال على السرير المجاور، وأفاقت تنظر إلي وأنا أبكي بحـرارة، قالـت: كفـى يـا سـهير، إن أبـاك عـاش بطلاً ومات شهيداً.. فهل البكاء يعيده إلى الحياة!.

قاطعتهـا "لا، لا تقـولي ذلـك.. فـأبي لـم يمـت، إنـه حـي.. الشـهداء أحيـاء عنـد ربهـم يرزقـون". وعـدت أجهـش بالبكـاء

ثانية وأضيف: ألا يكف هذا يا رب!.. لِمَ لا تأخذني وتريحني من هذا العذاب؟.

حاولت نوال إقناعي أن لا فائدة من البكاء، وتمنت أن تشرق الشمس لننخرط في العمل وننسى ما حدث، وأضافت: "ليس أمامنا سوى تكملة المشوار في الحياة، سنعمل حتى يلتقي قدرنا بنا، فنأخذه أو يأخذنا".. ومع شروق الشمس قامت تشد من عزيمتي ثانية ودفعتني للتوجه إلى مركز الخدمات الاجتماعية التابع للهلال الأحمر الفلسطيني.

***

الإجهاد والتعب كانا واضحين على وجهي وأنا أجيء وأروح في المستشفى الذي استقبل عشرات الجرحى بعد معركة الكرامة.. بعد حوالي الساعة طُلب منا أن نعد كشوفاً بأسماء الجرحى الموجودين في المستشفى، وبينما كنت ونوال مشغولتان بإعداد الكشوف، ولج الغرفة رجلان.. تناول الأول أوراقاً عن المنضدة وأخذ ينظر إليها، بينما وقف الآخر متسمراً يتأمل وجهي.. ثم قال: إذا لم تخني الذاكرة، فأنتِ سهير خطيبة صلاح.

فغرتُ فاهي ولم أعد أقو على النطق، بقيت واجمة أرسل نظراتي الذابلة وقد بللتها قطرات الندى.. ثم قلت: أجل، ولكن..

قال الرجل: ألا تذكرين وليد يوم أن حللتِ وصلاح بضيافته في رام الله.

عادت الذكرى في ثوان قليلة تدق ناقوس قلبي فتزيد من دقاته، لم أتمالك نفسي وكدت أقول "لا تذكّرني به.. إنه في قلبي".. لكن صوت أبي محمود الذي كان ينظر في الكشوف قطع حبل أفكاري وقال فجأة "هذا هو اسمه.. إنه في مستشفى الأشرفية.. هيا يا وليد".. ثم نظر إلي وأطال النظر وهو يقول "هل هذا معقول؟، هل أنا في حلم أم في يقظة؟، أية قصة التي يحيكها القدر في مخيلتي يا سهير! ألا تعرفينني؟".

أجبت والذكرى تعصف بي: "كيف لم أعرفك يا عمي؟!، أنت أبو محمود.. لقد عرفتك منذ أن ولجت الغرفة، لكنك كنت مشغولاً بقراءة الأسماء".

ازدحمت الذكريات في أعماقي، وتسارعت لحظات الزمن إلى عقلي.. كيف أنس صديق والدي في الثورة، الذي كثيراً ما نقلت إليه رسائل والدي، وكثيرا ما كان يعقد اجتماعات مع أبي في بيتنا في القدس.. همس أبو محمود وقطع حبل أفكاري

وكأنه يحدث نفسه وهو ينظر في وجهي قائلاً "كيف أذبلها الزمن، ونبذها القدر!.. كانت كالوردة الجميلة في ظلال أبيها، كيف سرت فيها ريح السموم فأذبلتها".. وسرعان ما تقدم مني، احتضنني بين ذراعيه وقال "ستبقين ابنتي، ولن أتخلى عنك أبداً، إنها وصية والدك الشهيد يوسف".. ثم نظر إلى وليد وأضاف:

- هيا يا وليد، عبد الله حامد في مستشفى الأشرفية..
- وسهير هل نتركها هنا بينما خطيبها في مستشفى آخر؟..

قلت والدموع تملأ عيني: هل تعني..؟

قاطعني أبو محمود موضحاً: يعني أن خطيبك صلاح على قيد الحياة، وهو الآن في مستشفى الاشرفية.

دارت الدنيا بعينيّ، ولم أعد أقو على الوقوف، لكني تماسكت ومسحت دموعي، ثم أسرعت إلى الباب فتحته وقلت: هيا لنذهب معاً.. ما بالكما واقفان؟.

***

في المستشفى، ما أن رأيت صلاح على سريره، حتى اندفعتُ إليه فجأة، ترنحنا وكدنا نسقط على الأرض.. بكيت وذرفت دموعاً غزيرة على صدره، وعندما عدت لنفسي

أخذت أتحسس ذراعه وأسأله إذا كانت إصابته خطيرة؟، فقال:

- لا، بسيطة.. أصبت وأنا أقف بجانب عمي يوسف قبل أن يستشهد.

تنحنح أبو محمود وتقدم من صلاح يهنئه بسلامته مضيفاً بأنه قابل أخيه صالح قبل أن يأتي وإنه بخير، ثم أضاف "شد حيلك، خذ سهير وقم بزيارة أهلك".

****

قلوب تحترق

أرخى الكون أعنة الشمس، فانطلقت في الصباح إلى الحياة تملؤها نوراً وحيوية، تحط بشعاعها الفضي اللامع على الخيام المتهدلة في المخيم، حيث قبعت أم صالح أمام خيمتها راكعة خاشعة، رافعة يديها إلى السماء متضرعة إلى خالقها أن يعود لها ولديها صالح وصلاح معاً سالمين.. وبينما هي كذلك، تقدم ابنها الصغير وعيناه مسلطتان على دموعها وقال: أماه.. لمَ تبكين؟ هل أنت مريضة؟.

مسحت أم صالح الدموع من عينيها، وقبل أن تجيب أضاف: أماه.. لماذا تأخر صالح وصلاح عن العودة؟

كاد قلبها أن يحترق وهي ترى الأخ يشتاق لأخيه، فكيف الأم لأبنائها!.. أجل.. لماذا تأخرا عن العودة!.

- الله أعلم يا ولدي.. إنهما في حماية الله.. ربنا يعيدهما لنا سالمين. قالت

عاد الصغير يتأمل وجه والدته وهي تتساءل عن سبب تأخرهما.. فقال: "سمعت يا أمي أن صلاح يقاتل اليهود.. هل هذا صحيح؟".. وأكمل قبل أن يعطها فرصة الإجابة: "أريد

أن أذهب إليه وأقاتل معه، سآخذ معي السكين التي تقطعي بها البصل وأذبحهم"..

لم تقو والدته على مقاومة كلماته البريئة، فمدت يديها إليه سريعاً أحتضنه والدموع تملأ عينيها وقالت: "الله يحميك ويحفظك حتى تكبر وتنتقم من القتلة".. وتمنت في قرارة نفسها لو يكبر ابنها فجأة ليقاتل أعداء الحق والوطن.. واستبعدت عنه الموت عندما نمّت بداخله حب الانتقام مع حب الأرض.. وفي دخيلتها راحت تتساءل "ما هذا يا رب!.. أيحق لمثل هذا الطفل أن يفكر هذا التفكير!.. أيحق له أن يفكر بالسكين والقتل!.. رحمتك يا رب".. ثم نظرت إلى زوجها الذي كان جالساً أمام الخيمة، يستمع للمذياع ويتابع أخبار المقاتلين وقالت: "سلّم أمرك لله يا أبو صالح.. إن شاء الله سيأتي صالح وصلاح معاً".. وأضافت بصوت منخفض: "لِمَ هذا يا ربي!، كفانا ظلماً وتشريداً.. لا تدع الظنون تتسرب إلى أعماقي، أرحمني يا رب.. ألسنا من عبادك!، ألسنا من طينة البشر!، إننا نربي أولادنا بدموعنا وقلوبنا حتى يقبل ربيعهم فنفقدهم فجأة.. حرام هذا.. ارحمنا يا رب".

***

بعد ظهيرة ذلك اليوم وقفت أم صالح قرب باب الخيمة ثانية وقلبها يحدثها أن صالح وصلاح سيعودان سالمين.. يعاودها الحنين إليهما، تنظر يمنة ويسرة وتراقب الطريق.. لا تطيق الصبر.. نظرت إلى ابنها الصغير ثانية وسألته وكأنها تستلهمه لينطق بما يجيش في صدره من كلمات بريئة عذبة: "ولدي، حبيبي.. هل سيأتي أخويك أم لا؟".

رفع الطفل عينيه إلى وجهها، تفحصها وكأنه يستوضح سؤالها، وقبل أن تعاود السؤال أبرقت عيناه، ابتسم وقال بعفوية:

- نعم يا أمي.. صلاح قال لي قبل أن يذهب أنه سيعود.. قال أيضاً انه سيحضر لي الحلوى.. ألم تسمعيه!..

عادت الابتسامة تملأ وجه أم صالح الحزين.. فقد كانت هذه البشرى أسعد خبر في حياتها، فتقدمت منه وقبلته وهي تقول: "سمعته.. أجل، لقد سمعته يا حبيبي".

***

من على بعد ظهرت سيارة تقترب وتشق طريقها نحو المخيم، كأنها آتية من الأفق البعيد، توقفت، ترجل منها بعض الرجال ترافقهم فتاة، هرعت أم صالح نحو السيارة لعلها تسمع أخباراً تُجمّل حياتها.. تجمهر الأطفال حول السيارة

أيضاً.. فجأة ترجّل صلاح وأسرع نحو والدته، تهاوت والدته وكادت تفقد وعيها.. قالت وهي تطوّقه بذراعيها: "الحمد لله على السلامة.. الحمد لله على سلامتك يا ولدي".. ومدت يدها تتحسس ذراعه المعلقة إلى رقبته، وأضافت: إن شاء الله الجرح بسيط يا بني!.

قال وهو ينسحب من بين ذراعيها إلى والده ودموع الفرح تنساب على وجنتيه: "بسيطة يا أمي.. لا تخافي".. وفيما كان صلاح يسلم على والده ويعانقه.. سأله والده عن صالح فأجابه أنه بخير وسيأتي قريباً.. رفعت والدته يديها إلى السماء وقالت "أحمدك يا رب وأشكر فضلك علينا، لأنك لم تكسر قلبي".. ثم تقدمت من سهير احتضنتها وولجت برفقتها إلى داخل الخيمة ترحب بها.

***

توالت الأيام وسهير تسهر على راحة صلاح في المخيم.. تضمد له جراحه، وتغسل جروح قلبه بقدر ما تستطيع من الحب والحنان.. تقوي عزمه وتشد من أزره لتعيده بطلاً إلى المعركة أقوى مما كان عليه سابقاً.. تُجسد فيه روح والدها لينتقم من الأعداء، وفي نيتها أن لا تدفعه للموت، بل للحياة الشريفة بعد تحرير الأرض العربية المغتصبة.. وفيما كانت

أم صالح تعد لهما الشاي سمعت سهير تقول له بصراحة "علينا أن نضمد الجراح ونشد العزيمة.. وعليكم أن تقاتلوا وتحرروا الأرض".

اعتدل صلاح في جلسته وقال: أنت تعرفين يا سهير كم تعثر مشروع زواجنا.. وإنه من غير الممكن أن نبقى هكذا.

قالت: لدي شعور بأن هذا الوقت غير مناسب للزواج.. نحن مشردون، وعندما نضع نهاية لهذا التشرد، سأفكر بالزواج.

بدا الحزن واضحاً في نبرات صوتها وهي تضيف بعد لحظة صمت: "إن دماء والدي لم تجف بعد، ما زالت تروي الأرض".. لكن صلاح لم ييأس، رغم أنه لم يستطع أن يقنعها بالعدول عن رأيها.. فلاذ بالصمت، ورحل عن عالمه وسط دوامة من الأفكار.

صباح اليوم التالي وصل أحد المقاتلين من الأغوار لاستدعاء صلاح لأمر هام.. وعلى الفور ترك سهير لمصيرها عند والديه وغادر المخيم.

****

عبد الله حامد

{أسابيع قليلة مرت بعد معركة الكرامة، انهالت العروض من بعض الدول العربية المتاجرة بأرض فلسطين ودماء الشهداء على الفدائيين بحجة مساعدتهم، وكسب الرأي العام الشعبي والشارع العربي المتعطش لقتال الأعداء.. أغدقت عليهم الأموال، وأقامت للمقاتلين معسكرات جديدة، وتبرعت لهم بما يفيض عن حاجتها من ذخيرة وسلاح.

وكنتيجة حتمية لهذا الدعم، انطلقت الثورة علناً على الأراضي الأردنية، وهبت برأس وجسد بعد أن كانت مقيدة تنغل في الظلام.. فانطلق المقاتلون يجوبون أنحاء فلسطين لا يعترفون بقيود ولا حدود، حتى عمّت قواعدهم مصر وسوريا ولبنان والعراق.

وكما تكاتفت بعض الدول لمساعدة المنظمات.. تكاثف الضباط والقياديون المتقاعدون من الدول المجاورة أيضاً، فتسلل بعضهم ممن يُظهرون غير ما يبطنون إلى قيادة المنظمات، واستطاعوا أن يترأسوا بعضاً منها.. ومن بين هؤلاء كان الضابط شعبان الذي أصبح فجأة قائداً لقاعدة كبيرة في الأغوار.. وفي الحال قام بجولة تفقدية للمعسكرات، سماها جولة تعارف على الفدائيين وقادتهم في تلك القواعد..

وحين مرّ بالقاعدة التي يأتمرها عبد الله حامد بعد استشهاد يوسف، لم يجده هناك.. فبعث بمن يستدعيه ويأمره أن لا يغادر القاعدة إلا بإذنه}.

هذا ما خلص إليه وليد ولخّصه لي أثناء اجتماعنا في القاعدة.. قطع حبل استرسالنا في الحديث سيارة عسكرية تتوقف قرب باب المعسكر، ويترجل منها الضابط شعبان يرافقه حُرّاسه وثلاثة من المصورين الأجانب.. سلّم علينا وسأل عن عبد الله حامد.. وعندما عرفني قال:

- سمعت عنك الكثير يا عبد الله.. فاختر خمسة من رفاقك لتنزلوا مع هؤلاء المصورين إلى مستعمرة أم نخلة هذه الليلة.
- لكن النزول إلى هذه المستعرة دون تخطيط يعتبر ضرب من الجنون. قلت.
- سبق ودخلتها وتعرف كل صغيرة وكبيرة فيها.. أعرف أنك شجاع ولا تحتاج لكل هذه التفاصيل.. أريد تسجيلاً كاملاً للعملية.. أم أنك تخاف النزول!.

شعرتُ وكأن شعبان يستفزني، فتجهم وجهي وتناولت سلاحي قائلاً:

- أنا لا أخاف.. لكني لا أحب أن أموت لأجلك أو من أجل صورة لي هناك، إن معسكر أم نخلة به أكبر قوات للعدو، وقبل اقتحامه يجب أن نخطط لمثل هذه العملية، ونحسب كل حساب..

قال شعبان مقاطعاً: ما هذا الهراء الذي تقوله؟، أيجب أن تخطط لكل عملية؟، إني آمرك بجمع رفاقك والنزول هذه الليلة..

- أنا مستعد للنزول.. لكني أعتقد أنه لن يعود أحد إلى القاعدة بعد العملية.. وكذلك لن ترى وجوه المصورين.

بدا أن المصورين الأجانب لم يفهموا شيئاً مما قلته، فأجاب شعبان على الفور: المهم أن تقوموا بالعملية هذه الليلة.

تجمع رفاق القاعدة قربي، كانت وجوههم تطفر بعلامات الحقد والكره لهذا الضابط.. فتجرأت وقلت: لن تستطيع أن تجبرنا على مثل هذه العملية.

صُعق شعبان لهذا العصيان أمام المصورين ورفاقه المسلحين، فقال وهو يهم بمغادرة القاعدة: "ستندمون على فعلتكم هذه.. خاصة أنت يا عبد الله".. وفي الحال ركب سيارته وغادر بأقصى سرعة متناسياً من جاء بهم من

المصورين.. غير أني اصطحبت المصورين إلى المقر وعاملتهم معاملة الضيوف، حتى إذا أقبل الليل طلبت منهم مرافقتي في العملية التي كنا نخطط لها قبل قدوم شعبان.

كانت العملية ناجحة لدرجة أن المجموعة لم تفقد أي مقاتل ولم يصب أحدهم، ما عدا أحد المصورين الذي أصيب برصاصة في ساقه أثناء عودته.. ونجحت عملية التصوير كما نجحت العملية.

صباح اليوم التالي كانت بعض الصحف العربية والأجنبية تزين صفحاتها الأولى بالصور الملونة التي التقطت لأحد معسكرات العدو والنار تشتعل فيه، وجنود العدو يلوذون بالفرار تحت أضواء الحرائق المنتشرة في كل مكان.

***

في الأيام اللاحقة وصل إلى القاعدة رفاق جدد بأمر من الضابط شعبان.. ولم تمض أيام قليلة حتى أستطاع أحدهم أن يسرق سلاحي ويبعث به إلى شعبان.. وعندما اكتشفتُ الأمر، أودعت السارق السجن، ثم توجهت إليه.. وتحت تهديد السلاح، استطعت أن أعيد السلاح وأنسحب قبل أن يتمكن رفاق شعبان من إلقاء القبض عليّ، مما دعا الأخير أن يبعث بمجموعة لاغتيالي.. وللمرة الثانية فشلت خطة الضابط

شعبان حين اكتشفتُ أمرها بمساعدة رجالي المخلصين.. ومع ذلك لم تتوقف تهديدات شعبان ورفاقه.. خاصة وأن رجال القاعدة بدأوا يظهرون نقمتهم علانية على الضابط مما زاد في توتر الموقف.

وفي اجتماع طارئ لرجال القاعدة قررتُ أن أذهب إلى القيادة العليا للمقاومة وأستشيرهم في الأمر، أو أجد حلاً لهذه المعضلة.

في مقر القيادة العليا كان أبو خليل في استقبالي، وعجبت عندما شاهدته يقف على ساقيه، ضحك أبو خليل وقال إنها ساق صناعية، وعندما سألته عن أبي محمود، أخبرني أنه توجه إلى سوريا لتفقد أحد المعسكرات قرب دمشق، فقررتُ الالتحاق به ومقابلته.

في قاعدة قرب دمشق، وبعد أن قابلتُ أبا محمود، قال الأخير بأن الكثير من المقاتلين اشتكوا من تصرفات الضابط شعبان، ووعدني أن يبحث الموضوع مع أعضاء القيادة.. وقبل أن أغادر المعسكر التقيت بأبي حامد فجأة في القاعدة، قال إنه التحق بالثورة بعد موت ابنه حامد، وإنه بحث عن سهير بعد نبأ استشهاد والدها، فلم يجدها.. لكني طمأنته أنها بخير، وأنها تعيش مع والديه في مخيم البقعة.. وقد عرفت أن

أبا حامد سيغادر إلى قاعدته الجديدة في الأغوار، فرحبت به وأخبرته عن مكان وجودي.. وتواعدنا على أمل اللقاء.

***

رفاق السلاح

رائحة النهر كانت تزداد قوة في أنوف المقاتلين كلما توغلوا في المزارع الممتدة على طول الشريط الضيق من الأرض قبيل وصول النهر، وخيوط الشفق تتلاشى تدريجياً وراء سلسلة الجبال الغربية، الممتدة كجدار ضخم يتحدى.. راحت حبات من العرق تتفصد من جبهة عبد الله حامد العريضة وهو يتقدم مجموعته.. وساعدت رطوبة الأغوار وحرارته على تحنيطه والتشبث بجبهته، كما يتشبث هو بسلاحه، ويده قابضة على الزناد.. فجأة سمع صوتاً يأمره "قف مكانك".. وقبل أن يفكّر في الأمر ومن الآمر، وقف ويداه متصلبتان على بندقيته، إذ ما زالت قدماه تغرزان في الأرض العربية، ولم يصل منطقة الحدود بعد.

قال "صاحب".. وتقدم من صاحب الصوت الآمر يتحدث معه، وما هي إلا دقائق معدودة حتى أمر مجموعته بالتقدم، فتقدموا، وإذا بهم أمام أحد الكمائن المتقدمة للجيش الأردني، فتصافحت الأيدي وهُزت بحرارة، وقال الضابط المسؤول عن تلك الجماعة التي يعد أفرادها على الأصابع: أهلاً بكم بين إخوانكم، إننا من إحدى كتائب الجيش الأردني التي تكمن

هناك وراء هذا التل، "وأشار بيده إلى موقع الكتيبة"، وقد جئنا نتبين مواقع الحدود ونستطلع كمائن الأعداء.

أضاف الضابط وهو يتأمل وجوه الفدائيين الخمسة من خلال ضوء القمر الخافت: إننا نحسدكم أيها الأخوة، لأنكم تغتسلون وتطهرون أجسادكم بماء النهر، تدوسون تراب الوطن، تنغرسون في أرضه وتتنشقون رائحة زهوره وبرتقاله، لكن حذار.. فهناك على اليمين لهم كمين، وهناك على التلة نقطة مراقبة.. أما هذا المكان فهو "الجنيدية"، وأخوكم الضابط "سعيد" على أهبة الاستعداد ورهن إشارتكم، "وربت على الرشاش الذي يحمله بحنان".

حمل أفراد المجموعة جُعَبهم من جديد، عانقوا أخوة السلاح بحرارة، وقصدوا النهر تلاحقهم عيون الضابط سعيد ورفاقه، متمنين لهم العودة سالمين.

كانت صداقة عبد الله للنهر صداقة وطيدة، كتلك التي نشأت بينه وبين الضابط سعيد.. ذلك الضابط الذي لا يعرف إلا مجموعات المقاتلين والنهر وكمائن الأعداء الغدارين كما كان يسميهم، ويصر على تسميتهم بهذا الاسم.

وقف عبد الله ونظر إلى النهر الذي أصبح على قيد خطوات منه، أحس بشيء ما يدفعه نحوه، رفع بصره إلى

سلسلة الجبال وراء النهر، أحس بقلبه يكبر ويكبر، وسمع بكل حواسه أن كل شيء خلف النهر يناديه، البرتقال، الزيتون، والديه وعمه يوسف، الأرض بكل ما فيها من أحياء وأموات وشهداء.. وعيون الضابط سعيد التي تنتظر عودته بفارغ الصبر.

بعد منتصف الليل عادت المجموعة سالمة بعد أن دمرت مصفحة وقتلت طاقمها، وزرعت عدة ألغام في الطريق.

***

{في الأشهر الأخيرة، تدخلت بعض العناصر الهدامة لتحيك الدسائس بين المنظمات.. كثرت المناوشات، وتبادلت مجموعات من المقاتلين إطلاق النار على بعضهم البعض.. انحازت منظمات إلى أخرى، وتبنت مجموعات أخرى عدم الانحياز، وراحت تدعو للصلح بين الفئات المتنازعة.. لكن قتال أخوة السلاح بين المدنيين لم يتوقف، وزاد الطين بلّة ما ورد على لسان بعض المنظمات بأن هناك ثلاث طائرات مخطوفة تجثو في مطار صحراوي على الأرض الأردنية، وأضاف الناطق الإعلامي للمنظمة أن ركاب الطائرات من الأمريكيين والإسرائيليين يعتبرون في عداد أسرى الحرب..

وعلى إسرائيل أن تبادلهم بالأسرى العرب من رجال المقاومة الصامدين في سجون الأعداء..

وعلى أثر ذلك تهاوت الأحداث سريعاً نحو الأسوأ.. هبّ العالم على قدم وساق يشجب هذا العمل مهدداً بالتدخل إذا لم يتم الإفراج عن الركاب بأقصى سرعة ودون شروط.. لكن رجال المنظمة قاموا بتفجير الطائرات بعد أن نقلوا الركاب إلى مكان مجهول تحت جنح الظلام.. مما دعا الجيش الأردني بعدم الوقوف مكتوف الأيدي أمام ما يجري على الساحة الأردنية، ولن يسمح للعناصر المشبوهة باستعمال السلاح بين المدنيين.. فتقدم بآلياته لتحرير الرهائن وإخلاء سبيلهم، قبل أن يتعقد الموقف وتتدخل قوات أجنبية في الصراع لحل الأزمة}.

هذا ما قرأه عبد الله حامد في إحدى الصحف أثناء تواجده في القاعدة..

وفي أخبار لاحقة، أوردت الصحيفة ما يلي {بينما كانت الأحداث تجري متسارعة في الأردن.. كانت مدينة غزة بقطاعها تشتعل ناراً هي الأخرى على أثر صمود المقاومة العربية هناك.. وكان مطار حيفا ينفث لهيب دخانه الأسود أثر تساقط صواريخ الفدائيين على أرضه.. كما كانت سيارة

وزير الدفاع وقائد القوات العسكرية الإسرائيلية تتعرض للمرة الثانية لوابل من رصاص المقاومة}.

***

بينما كانت هذه الأحداث تتسارع.. كان عبد الله حامد مع سبعة من رفاقه المقاتلين يحملون عتادهم ويشقون طريقهم بين الأشجار راحلين عن الأغوار، بناء على أوامر وصلتهم من القيادة.. في قلوبهم آلاف الحسرات، وعلى شفاههم عشرات الكلمات المخنوقة المشحونة بالآهات، ينقلونها ويتوجهون بها إلى إحدى القواعد الجبلية المطلة على الأغوار.

في الطريق والمسلحون يصعدون الجبال، قال عبد الله لرفيقه وليد بعد أن تذمر الأخير من الوضع:

- سنعود بإذن الله قريباً إلى الأغوار، ولن يحدث شيئاً.
- أشعر أن هذه نهايتنا مع الأغوار.
- لا تقل ذلك، فالأغوار أصبحت بيوتنا، منها سنحرر القدس ويافا وكل فلسطين.

كانت العزيمة تملأ جوارح عبد الله، كما الإرادة تملأ كيانه، ومع ذلك سار مع المجموعة يحمل جعبته وسلاحه.

قرابة الساعة السادسة مساء، وبينما كان رفاق السلاح يشقون طريقهم صعوداً نحو الجبال، إذ بوابل من الرصاص يشق كنه الصمت وينهال عليهم، ينذرهم بالتوقف وإلقاء السلاح أو الموت.. وعلى غير عادته تجمدت الدماء في عروق عبد الله حامد، ثم تقدم مع رفاقه حسب الأوامر إلى سفح الجبل بعد أن ألقوا بأسلحتهم على الأرض.. وما أن وصلوا القمة حتى ابتدرهم أحد الجنود بالسبّ والإهانات.. بينما قام بعض أفراد المفرزة بجمع السلاح الذي خلفوه وراءهم.

وجد الرفاق أنفسهم بين مجموعة من الجنود وثلاث عربات مصفحة.. فبادرهم عبد الله حامد وسأل عن قائدهم.. فتقدم منه أحدهم ولطمه صفعة قوية على وجهه وهو يقول: "مَن تكون حتى تتجرأ وتسأل عن قائدنا؟".. وفي نفس اللحظة تعاون الجميع على ضربه وضرب رفاقه بكعوب بنادقهم، بينما قال أحدهم لزملائه: "ما رأيكم لو ندفنهم وهم أحياء!"..

تعالت ضحكات الاستهزاء، وفجأة خفتت عندما ظهرت سيارة جيب عسكرية باتجاههم.. وما أن توقفت حتى ترجل منها أحد الضباط الملثمين وقال:

- مجموعة خنازير برية جديدة.. أليس كذلك..؟

رفع عبد الله حامد رأسه والدم ينزف من أنفه ووجهه، وأخذ يحدق بالضابط، ويعيد ذاكرته إلى الوراء، فيسترجع نبرات صوت الضابط شعبان .. وحين تأكد منه قال بصوت خافت:

- أظن أنها النهاية يا رفاق..

قال الضابط آمراً: أحضروا الوجبة الأولى، فليس عندنا وقتاً لنحقق معهم..

ظهرت مجموعة من المقاتلين من داخل كهف قريب يتقدمهم أبو حامد والجنود يركلونه وينهالون على رفاقه ضرباً بكعوب بنادقهم..

تقدم الضابط من المجموعة وهو يحمل رشاشاً بيده، وأخذ يتفحصهم بطريقة وحشية، ثم توقف فجأة أمام أبي حامد.. نظر إليه طويلاً ثم أندفع فجأة وضربة على وجهه بكعب الرشاش في حركة خاطفة وحشية..

رفع أبو حامد يده ليمسح خطاً عريضاً من الدماء بدأ يرتسم على صفحة وجهه.. تراجع الضابط للخلف وصاح بصوت وحشي: " تقدم هنا يا حيوان"..

نظر أبو حامد من خلال دمائه إلى الضابط نظرة مرعبة مدمرة، ثم تحامل على ساقه المصابة وتقدم ببطء..

- أسرع.. أسرع. صرخ الضابط مرة أخرى.

استمر أبو حامد في التقدم بنفس البطء والتمهل، ويده تحاول منع سيل الدم المتدفق من وجهه.. وقف قبالة الضابط وجهاً لوجه وكلاهما ينظر للآخر نظرة مدمرة هائلة.. تحرك الضابط وبدأ يتمشى أمام أبى حامد وهو يصرخ:

- قيل لي أنك تعرف عبد الله حامد جيداً.. هل ما زلت مصراً أنك لا تعرف مكانه؟.

تململ عبد الله عندما سمع اسمه، وكأن شيئاً من الأعماق يناديه.. حاول الوقوف للتقدم نحو الضابط، غير أن أحد الجنود ضربه بكعب رشاشه على رأسه، مما جعله يفقد وعيه.. فهوى صريعاً على الأرض يتخبط بدمائه، بينما انهالت الركلات واللكمات السريعة على رفاقه..

استأنف الضابط كلامه لأبي حامد: "أعرف أنك تعرف مكانه، وقد اعترف رفاقك أنك في الطريق إليه.. ومن الأفضل لك أن تدلني عليه.. هيا تكلم"..

لم ينطق أبو حامد ببنت شفة، واستحالت عيناه مجمرتين تلتهب فيهما رغبة البطش بمن يقف أمامه، حملق، عصر ناظريه ليرى من يقف أمامه.. تذكر الجثث المتناثرة.. لا، لم يتذكر غير جثة واحدة قفزت إلى ذهنه بسرعة البرق الخاطف.. جثة ولده حامد والنابالم يحرق جسده ويمزقه.. قال يحدث نفسه "هؤلاء الجنود من نفس الفصيلة والنوع الذي قتل ولدي حامد.. لا فرق بينهم.. الجميع قتله.. أشرار".. وبلحظة البرق اندفع نحو الضابط ليفتك به، لكن الضابط لم يعطه الفرصة، فهوى بالرشاش بعنف على وجهه، على رأسه، وأبو حامد يتلوى أمام ضرباته، صامداً كالصخرة..

- مت، مت يا حيوان..

كعب الرشاش الحديدي يحفر رأس أبي حامد، يحفر وجهه.. الدم يتدفق بغزارة.. الضابط يصرخ، يتشنج، يضرب، الدم، اللحم، العظم.. لم يعد يظهر وجه أبي حامد، فجأة دوت صرخة هائلة "الله أكبر".. وسقط أبو حامد على الأرض بلا حراك.

قال الضابط وهو يهم بالصعود إلى سيارته العسكرية آمراً مجموعته: أقضوا عليهم، ثم احملوهم في سيارة الإسعاف وألقوا بها وبهم من الجبل إلى بطن الوادي.

أسرع أحد الجنود إليه وقال: إن بينهم عبد الله حامد، أنا أعرفه. توقف الضابط فجأة ثم قال بانفعال: أين هو..؟

أشار الجندي إلى المقاتل الذي مرّغ وجهه بالتراب وكان فاقد الوعي.. فاعتقد الضابط أن عبد الله في عداد الأموات.. فأضاف:

- ألم تخبرني إلا بعد أن قتلته!، اتبعه أيها الكلب..

وقبل أن يطلق النار عليه، ظهرت لهم من بين الغبار ثلاث دبابات تشق الأرض وتحاصر المجموعة منذرة أفرادها بالاستسلام أو الموت.. لكن المجموعة أخذت تطلق النار على الدبابات المتقدمة.. وبعد معركة قصيرة استسلم الضابط شعبان ومجموعته للقوات المتقدمة.

تقدمت سيارة إسعاف تنقل الناجين من المذبحة.. من بينهم كان عبد الله حامد، وما أن فتح عينيه حتى شاهد الضابط سعيد أمامه.. قال والألم يخنقه: اشرح لي، ما الذي يحدث هنا..؟

ابتسم الضابط سعيد وقال: إن رفاق كتيبة المدفعية كلهم مع المقاتلين الشرفاء قلباً وسلاحاً.. لم ينسوهم أبداً..

استفسر عبد الله ثانية: أنا لا أفهم.. الضابط شعبان والجنود الذين معه!؟.

قال الضابط سعيد: إنهم عملاء ومرتزقة، أشرار وقتلة يترأسهم الضابط شعبان.. استولوا على قاعدة عسكرية من الجيش الأردني بعد أن غدروا بأفرادها وقتلوهم.. ثم استغلوا الأسلحة لقتلكم وإشعال نار الفتنة بين الحكومة والفدائيين.

***

في قاعدته الجديدة المطلة على الأغوار، جلس عبد الله حامد بين رفاقه، وقد ضمد جراحه، ينتظر ما يخبئ له القدر، وعلى مقربة منه جلس أحد المقاتلين يتحدث مع قريبه الذي قدم من غزة قبل أيام عدة.. سأله وهو يرسم خريطة لفلسطين على الأرض بحربة سلاحه: كيف تركت الأهل في غزة؟

أجاب: كلهم بخير.. ثم تنهد وأضاف: الجميع بخير..

كان هدير قذائف المدفعية الثقيلة يدوي بين حين وآخر في أماكن بعيدة، يتعالى صوت رشاش قريب، وكل مقاتل يعيش في عالمه الخاص..

قال الغزاوي في محاولة لتبديد صمت المقاتلين ويجمع أفكارهم في بوتقة واحدة.. "منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماي أرض الأردن، أحسست أن ثقل الكابوس يخف

عن صدري.. فنحن في قطاع غزة نعيش تحت ثقل كابوس الإرهاب منذ أن أحتل اليهود القطاع وحتى الآن"..

لم يناموا تلك الليلة.. سألوه عن أسرته فردا فرداً.. فقال:

- "نضال" بخير، لكنه معتقل.. لم يقبضوا عليه في عملية.. لكن بعد إحدى العمليات فتشوا بيتنا وأخذوه، وحتى الآن موجود في السجن.. اعتقال تعسفي، لكنه بخير، ولن يستطيعوا إثبات أية تهمة ضده.. لم يكن فدائياً.. لكني شعرتُ بعد زيارتي الأولى له أنه سيصبح كذلك بعد أن يخرج من السجن..

"علي" ابني الصغير، ما شاء الله عنه.. مشترك في المقاومة، وكل يوم في مكان.. لم يستطيعوا رغم كل ملاحقاتهم له أن يكتشفوا المكامن التي ينطلق منها ويعود إليها..

نحن جميعاً.. جميع أهل غزة نتحداهم كل يوم.. ننسق مع رجال المقاومة في الضفة الغربية.. ما عدنا نخشى إرهابهم، ولم نعد نهتم بكل أساليبهم في تعذيبنا وإرهابنا..

صحيح أن كابوس الاحتلال ثقيل، لكننا والحمد لله نقاوم.. إن شاء الله نستطيع تحقيق الآمال بثورتنا وانتفاضة الجيل الغاضب على الاحتلال..

قطعت زخة رصاص من رشاش قريب حديث الرجل، وشتت أفكار المقاتلين.. فصرخ أحدهم: هناك جنود يتقدمون نحو القاعدة..

لم ينبس أحدهم ببنت شفة، كما لم يتحرك عبد الله حامد من مكانه.. قال له أحدهم: رفاقك يتعرضون للموت وأنت جالس تفكر، أنا لا أعرف ما الذي يمنعك من إطلاق النار؟!.

أجال عبد الله حامد بصره نحو المقاتلين ثم استقر على رفيقه، وقال يحدث نفسه "كيف يقول لي ذلك وهو نفسه لا يطلق النار!"، فقال له: على مَن أطلق النار!.. على أخوتنا في السلاح!، على الذين كانوا يحمون ظهورنا في الأغوار، ويزغردون برصاصهم عندما نعود من العمليات!..

صمت لحظة ثم أضاف: لم أكن في يوم من الأيام عاجزاً مثل يومي هذا.. أطلق النار أنت إذا استطعت، قاتل واقتل أخوتك من حملة السلاح.

قدحت عينا المقاتل وأخرج زفيراً قوياً وقال:

- أُقاتل.. أُقاتل مَن!، أُقاتل أخي الذي يتقدم الجنود..
- أنت تخاف أن تقتل أخاك، وتطلب مني أن أقتله.. لا والله، لن أفعل.

فجأة علا صوت من بعيد عبر مكبرات الصوت يدعو المقاتلين أن يلقوا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم، أو ينسحبون من بين المدنيين الذين لا حول لهم ولا قوة.. وفيما كان المقاتلون ينسحبون، قال عبد الله: "لن أطلق النار، حتى لو كانت نهايتي".. وانسحب باتجاه الوادي القريب من المنطقة محاولاً الوصول إلى مقر القيادة في الجبل المقابل لموقعه.

***

بعد حوالي ساعات ثلاث وصل عبد الله حامد مقر القيادة، حيث التقى بزميله أحمد، والقذائف تتساقط بغزارة وتقصف المقر..

كان عبد الله حامد مشدوهاً لما يجري، فذاكرته ما زالت تزخر بما شاهده في طريقه إلى مقر القيادة.. أخوة يتصارعون حتى الموت، والأطفال ينسلون خارج بيوتهم يبحثون عن كسرات من الخبز، بعد أن دبّ الجوع في أوصالهم، وتسرب إلى أحشائهم، راحوا يجمعون الرصاص

الفارغ من الطرقات ومن بين البيوت، والناس قابعون في الزوايا يحمون رؤوسهم من الموت ويرددون بصوت جهوري "الله أكبر.. لا حول ولا قوة إلا بالله".. لم يصدق ما يرى وما يسمع، كان مصدوماً وكأنه يحمل على كاهله كل هموم العالم مع أحزان الجرحى ودماء القتلى.. وكان كلما همّ بإطلاق النار تتراءى أمام عينيه صورة جميلة للضابط سعيد، فيتراجع عن الإطلاق.. لم يطل به التفكير عندما وجد نفسه وسط حفرة صغيرة، والمبنى ينهال عليه بعد أصابته بقذيفة دمرت الجزء المتبقي منه.. أخذ يتساءل "لماذا يتقاتلون!.. أليس من الأفضل أن يتحدوا لمواجهة العدو الحقيقي".. سقطت قذيفة ثانية وثالثة بالقرب منه أيقظته من غيبوبته، صرخ أحمد بأعلى صوته "لقد أُصبت يا عبد الله".. هبّ عبد الله مذعوراً وركض باتجاه الصوت.. شاهد أحمد مدرجاً بدمائه، بُقر بطنه، وتطايرت أشلاؤه، وقبل أن يصل إليه من بين أنقاض المقر، فارق الحياة.

وقف عبد الله مشدوهاً لا يدري ماذا يفعل، ولا يلوي على شيء.. "القتلة".. رددها أكثر من مرة وهو يخرج من بين الأنقاض إلى الشارع العام، وحين شاهد الجنود يتقدمون نحو المقر المدمر، همّ بإطلاق النار، إلا أن صورة الضابط سعيد

سيطرت على مخيلته، فقال في نفسه "أيعقل أن يكون بينهم.. لا، لا، إن شعبان هو الذي بينهم.. من الذي يقصف البيوت ويشعل فيها النيران والحرائق!.. أهو الضابط سعيد!.. أهم رفاق سعيد!.. لا وألف لا.. مستحيل.. إن الرجال الذين كنا نقابلهم هناك عند النهر لا يمكن أن.."، وبسرعة البرق تبددت الصورة الجميلة من أمام عينيه، وبدأت ملامح صورة شعبان تظهر أمامه.. اختفى الوجه الجميل ليظهر الوجه البشع.. عندها فقط همّ بإطلاق النار ليحمي من تبقى من الأخوة والأهل على قيد الحياة، قبل أن يتساقطوا مثل رفيقه أحمد تحت الأنقاض والقذائف.

لا يدري كيف أطلق رشقة رصاص من سلاحه في الهواء.. وقبل أن يستمر بالإطلاق بانت على شفتيه ابتسامة هستيرية.. أخذ بعدها يطلق النار في الهواء من جديد ويدور حول نفسه، ثم يتراجع إلى المتاريس الخلفية.. تنتابه مشاعر عنيفة، متشابكة ومتلاحقة، لكنه كان متأكداً أن سعيداً ورفاقه ليسوا بين هؤلاء الذين يقصفون الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة، العُزّل من السلاح.

توالت الأحداث متسارعة.. وعبد الله لا يدري مَن يقاتل.. ولا يدري كيف بدأ القتال ومتى سيتوقف؟.. الرصاص الفارغ

يملأ الشوارع والطرقات، وكأنه أسراب من الجراد الزاحف.. مئات وألوف الطلقات في الدقيقة الواحدة، عشرات الجثث، دخان الحرائق يتصاعد ويتلولب ويغطي السماء، ويزداد لهيباً كلما أتى على جثة جديدة أو بناء جديد.. فجأة وجد نفسه في مكان خارج مناطق القتال، وفي ذاكرته دوامة من الأفكار حول مصير أهله ومصير خطيبته سهير.

بين الألم والضياع انسحب متخفياً بين الأشجار يستمع إلى المذياع الذي بدأ يعلن عن وساطة عربية لفض النزاع بين الأخوة ووقف أطلاق النار.. كانت الإذاعة قد أعلنت عن وقف إطلاق النار مرات عدة سابقاً، إلا أن القتال استمر ولم يتوقف.. وفي اليوم التالي أجتمع الملوك والرؤساء العرب في القاهرة لبحث الموقف المتأزم.. تصافح الجميع متناسين ما حدث، وجل همهم أن يوقفوا القتال الدائر بين الأخوة.. وفي نهاية اجتماعهم أعلنوا عن وقف إطلاق النار بين جميع القوات المتقاتلة على الأرض الأردنية.

***

أخيراً توقف القتال، قفزت الدموع من عيني عبد الله حامد، وانسابت فرحاً بغزارة.. ألقى سلاحه وانسل خارجاً من بين الأشجار والتعب بادياً عليه.. فجأة انطلقت زغرودة بالقرب

منه ابتهاجاً بوقف القتال، وحين تنبه إلى نفسه كان يرتجف، شعر أن دقات قلبه تزداد خفقاناً لحظة بعد لحظة، فأغمض عينيه وحدث نفسه: "ما أعظم الجندي الشريف، وما أعظم الفدائي الشريف.. ما أعظم المقاتل الشريف الذي يوجه سلاحه نحو العدو الغاصب، والعدو وحده.. ما أعظمه وهو الوحيد الذي ما زال يقال عنه إنه فجوة النور المتبقية للأمة العربية".

****

نوال

في غمار هذا الجو الحزين، وأنا أدور من غرفة إلى أخرى ومن سرير إلى آخر، أسعف أحدهم وأضمد جراح آخر في المستشفى.. تراءى لي صلاح على أحد الأسرة.. تقدمت منه لأتأكد منه.. كانت ملامحه قد تغيرت، طالت لحيته وبدا وجهه شاحباً.. قال إنه شعر بدوار خارج المستشفى ووقع على الأرض، ولا يدري كيف استقر به الحال على سرير داخل المستشفى فاقد الوعي.. كان تعباً، سألني عن سهير، أخبرته أنها بخير وأعطيته حبة دواء مهدئة، فاسترخى ونام في دقائق معدودة.

ولجت سهير الغرفة والدموع تملأ عينيها، وبلا مقدمات جلست على حافة السرير دون أن تنظر إلى أحد، وراحت تبث لي ما تختزنه في أعماقها.. استعرضت الآمال المحطمة بعد أن تعودت على العطاء الذي لم تعد ترى له نهاية.. قالت إنها أعطت أمها ثم أباها.. دُمّر بيتها وسُلبت أرضها، وما زالت صامدة لا تلوى على شيء.. وفي أعماقها كانت تتساءل "هل لا بد من أن تقدم آخر من تبقى لها؟، عند ذلك، من سيبقى لها بعد صلاح!.. أتبقى للدموع تغسل بها سواد ليلها.. أم تبقى للذكريات تدق بها أوتار شمس نهارها!؟".

في قرارة نفسها، رفضت سهير من أعماقها أن ترى صلاح يؤخذ منها.. إنها إنسان، والإنسان يرفض إن لم يستطع.. وهي كذلك ترفض لأنها لا تستطيع أن تعيش بدونه.. لن تستطيع أن تسير كل يوم على درب حزين يودي بها إلى مقبرة جديدة غُرس فيها أحد الأحباء.

وحين عاودتها فكرة القبول، لأنها اختارت أن تسير في درب العطاء والشهداء الذين ما أن يُغرسون في الأرض، حتى تُثمر الأرض من بعدهم أجيالاً متحررة وأوطاناً مستقلة.. عادت ورفضت الفكرة من أعماقها وهي تفكر بقلبها، شعرت أنها إنسان له كيان وله شعور وفيه دم يتحرك، ولن تستطيع أن تحتمل كل هذا العذاب والفراق الطويل.. وعندما انسابت الدموع من عينيها تركتها تنهال بغزارة.. قالت وقد تعالا صوت نشيجها:

- أليس لعملنا هذا نهاية!، أهكذا كُتب علينا أن تستمر أنفاسنا لنودع من نحبهم فقط!.
- كفانا موتاً.. لا تفتحي جراحاً جديدة. قلت لها وقد آلمني بكاؤها وعذابها.

- إنني أتمزق من أعماقي.. لم أعد أطيق الصبر "ورفعت يديها إلى السماء وأضافت" كفانا قتلاً وذبحاً وعذاباً.. ارحمني يا رب.. أعطني صلاح ثم خذني معه إلى الأبد..

جفل صلاح وصحا من نومه على صوت ملائكي رقيق يناديه.. وما أن فتح عينيه حتى تسمرتا على سهير، وكأنه أصيب بالشلل أثر المفاجأة.. فحاول القيام لكنه تهاوى وتمدد على السرير ثانية.

التقى صلاح بسهير، والتقت سهير بصلاح، فكان لقاؤهما مفاجئاً وحاراً، تلاقت فيه الدموع بالآهات.. ثم تركا لروحيهما العنان تسبحان في بحر من الدموع والذكريات.. وشُغلاً عن كل ما يدور حولهما وهما يتحدثان في مناجاة موضوعها "اللقاء" ورنين ألفاظها "السلامة" في لحظة زمن مفقودة.

شعرتُ أن سهير تكاد تطير من الفرح والسعادة التي نسيتها منذ زمن، فتركت نفسها تنساب في قلب الحبيب بشغف حيث أطمأنت إلى ملجئها الوحيد في هذا العالم.. وانفرجت الشفاه عن بسمة حزينة، ثم رفعت رأسها تنظر إلى وجهه وقالت: لقد استجاب ربي لدعائي، فردّك إليّ.

قال: بل ردك الله أنتِ لي يا عزيزة قلبي..

قاطعته سهير: لن أسمح لأحد أن يأخذك مني هذه المرة.. "وأضافت بصوت منخفض": كنت أدفعك لتكون مثل أبي.. لكني لا أحتمل أن تكون شهيداً آخر.. "ثم رفعت رأسها إلى السماء" وأضافت: لتأخذني يا رب قبل صلاح أن كنت تنوي أن تأخذه مني.

مد صلاح يده يمسح الدموع التي ظهرت في عينيها، وأخذت تسبح على وجنتيها.. فمالت برأسها على صدره متناسية أنهما في المستشفى، وظلا هكذا صامتين لفترة، لا يدركان أطالت أم قصرت من عمر الزمن، لكنهما أدركا في النهاية أن المكان ليس لهما وحدهما، فنهضا عائدين إلى البيت لرؤية الأهل.

***

ذاكرة مستباحة

لم يصدق صلاح ما شاهده من أحداث مرت في ذاكرته متسارعة، كان يحلم بالأمل، ويعيش لحظة أمان مفقودة وكأنه في حلم مزعج.. كابوس كان يثقل كاهله وهو يناقش الأوضاع مع وليد.. قال له وكأنه يحدث نفسه "لعنة الله على هذه الحرب، كنا نقاتل في سبيل قضيتنا المركزية وإعادة حقوقنا واسترجاع وطننا المسلوب، فأصبحنا نقاتل بعضنا وإخوتنا.. أية مؤامرة هذه التي تحاك ضد هذا الشعب!".

قال وليد مهدئا ثورة صلاح: لو تُرك الأمر لنا لاخترنا السلام، ولما أردنا أن تقوم الحرب يوماً واحداً.. وأنت من أفراد الشعب الفلسطيني تعرف قبل غيرك أن هذا الشعب بالذات مسالم ومنفتح نظراً لتعاقب حضارات عدة، وتعايش أجناس وعقائد عدة فوق أرضه حقبة من القرون.. إلا أن أي شعب في العالم يواجه عدوانا وتشريداً كالذي تعرّض له الشعب الفلسطيني لا يمكن إلا أن يتمرد ويثور.. المهم أن يبقى الشعب الفلسطيني يقظاً ليعرف كيف يخوض القتال..

قاطعه صلاح: يخوض القتال في أرض فلسطين وعلى ترابها لتحريرها.. ومع إخوانهم العرب لا ضد إخوانهم العرب.. وبذا تكون المعركة عربية وليست فلسطينية فقط.

- أنا متفق معك.. لذلك أرى إن عدونا عدواً عاتياً، رأس حربته فلسطين.. لكنه يسيطر على كل دوائر النفوذ في العالم، إنه يحاول أن يقتلع جذورنا من الأرض.. ويقضي على كل بارقة أمل فينا.. وأعتقد أن شعباً ما لم يواجه ما نواجهه نحن من قوى.. وهذا ما يجعلنا على قدر مصيرنا، وعلى مستوى معركتنا.

وحين لم يسمع وليد كلمة واحدة من صلاح، أضاف: لم يبق علينا إلا أن نعمل بصبر ونفس طويلين، مستعينين بأصدقائنا في الشرق وفي الغرب على إعادة حقوقنا ووطننا.. معتمدين على الله ثم على أنفسنا قبل كل شيء.. واثقين بأن روح الثورة والحرية والكرامة في الأمة العربية لن تخمد أبداً. فقال صلاح:

- حين ننتصر على أنفسنا، ونتغلب على ذواتنا، نصبح أمة جديرة بالحياة، ونفخر بكل مولود عربي جديد.

****

صالح

توالت الأيام، ورحل صلاح ورفيقه وليد مع من رحل من المقاتلين إلى سوريا، حتى تهدأ النفوس الثائرة، وتعود المياه إلى مجاريها.. كان الجميع يعيشون زمنهم في ضياع، رغم أن هدفهم كان واحداً..

ذات صباح دمشقي، وبينما كنت أجلس مع أبي محمود في مكتبي، دلف أخي صلاح المكتب مهموماً وتعباً، كأنه يحمل متاعب الدنيا على كتفيه حتى تقوس ظهره، سلّم وجلس.. بعد أن شربنا الشاي أسند أبو محمود رأسه على عصاه بين راحتيه وراح يزفر، وكأنه يعاني آلام جرح نازف..

بعد دقائق رفع رأسه وقال: لم نعد نحيا كما نريد.

قال صلاح محاولاً تهدئته: هوّن عليك يا رجل، فلن يقف أحد في طريق الثورة طالما بقي الثوار يحملون السلاح.

تنهد أبو محمود وقال: "لقد فقدنا الكثير، ولم يعد لدينا ما نحتفظ به".. ثم نهض وأقسم "عهد على نفسي أن لا يستريح لي بال حتى أعيد ترتيب الأمور".. هزّ عصاه في الهواء وأضاف "ستستمر الثورة طالما بقيت الأجيال الفلسطينية،

وطالما بقي دم العروبة ينبض في صدور العرب الأحرار، حتى نحرر الأرض ونستعيد الوطن"..

حين صمت، كان العرق يتفصد من جبينه.. هزّ عصاه ثانية في الهواء، أدار وجهه نحو الباب، وخرج من المكتب دون أن ينبس ببنت شفة.

صباح اليوم التالي، قيل لي إنه غادر دمشق متوجهاً إلى بيروت وهو في ثورة غضب جامحة.

مساء، التقيتُ ثانية بأخي صلاح ورفيقه وليد، وعشت معهما لحظات من عمر الزمن المفقود.. تحدثنا في أمور كثيرة.. مرّ ليل وتبعه نهار، وفي الليلة التالية سهرنا حتى الفجر، ونحن لا نصدق أننا ما زلنا على قيد الحياة..

أذكر أنني في تلك الليلة تحدثت مع أخي عن أمر سهير التي بقيت مع والديه في مخيم البقعة.. حاولتُ أن أقنعه بالزواج منها بعد كل ما حدث.. فزواجه لا يمنعه من حمل السلاح حتى وصوله إلى هدفه.. وكذلك حاول وليد، إلا أن أخي أصر على وقفته العنيدة، قال إن حياته انتهت، ولم يبق أمامه إلا الزواج من حبيبته الأرض، فهي عروسه التي تنتظره بفارغ الصبر.. وعلى سهير أن تحاول الصبر والصمود والسلوان.

أحسستُ أن قلب أخي يتمزق وهو يردد كلماته الأخيرة.. كنت أعلم أنه يرغب بالزواج منها.. لكنه يخاف.. لم يكن يخاف الموت، لكنه كان على ثقة أن سهير ستفقده في الأيام القادمة.

أقنعته أن سهير ستوافق على عرضه بالزواج، مهما كانت الظروف.. فقال بمرارة العاشق: دعني يا أخي.. سأبحث الموضوع معك في وقت آخر.

أخي كان حائراً تلك الليلة، بدا القلق واضحاً على ملامحه تماماً، فتركته لحاله، وغبنا ثلاثتنا، "وليد وأخي وأنا" في سبات قلق مشروع وأحلام ضائعة.

في اليوم التالي.. هجرتُ البيت ورحت ألاحق خطواتي إلى مقر القيادة، فمضى الوقت حتى بعيد الظهر قبل أن أعود إليه..

في الطريق إلى البيت كنت أتمشى وحيداً.. أشعر بغربة قاتلة.. هؤلاء الناس لم أعد أعرفهم.

الناس كثر في كل مكان.. لكني أحسست بانقباض غريب من الداخل.. أسرعتُ إلى البيت لعلّي أزيل وحدتي المفاجئة بالتحدث مع أخي ورفيقه وليد، لكني لم أجد في البيت أحداً، فانزويت في البيت أدخن.

حين يكتشف المرء كم هو وحيد في عالمه الحزين المحزن.. يصرخ في أعماقه، ومن أعماقه.. يريد أن يخاطب الحجر.. لذا شعرت أن بي رغبة لمخاطبة الجدران.

هذا المكان وحيد مثلي، فارغ مثل عالمي..

كان المساء قد حل.. أحببتُ الجلوس في الظلام، لم أشعل في البيت نوراً.. شعرتُ بوحدة خانقة.. وكوني وحيد ضاعف من سطوة حضور أخي، وهياج شوقي إليه..

لا أدري لِمَ كنت مشبعاً ذلك المساء بالرغبة في الكتابة عن الموت.. عن طائر الرحيل الذي طرحني على بوابة مملكة الحزن، وعن الحب حين يولد وسط قضية.

الجو بارد.. وأنا مخنوق داخل الغرفة بين الجدران في الظلام، فرغم شعوري بانسراب الزمن هدراً بعيداً عن عالم السلاح، وتلك الأرض الحبيبة.. إلا أني لم أستطع أن أرغم أفكاري الابتعاد عن حب الأرض وحب أخي.. حدثتُ نفسي "لماذا لا يأتي أخي إلى البيت هذه الساعة!.. لماذا لا يأتي أحد الزملاء ممن أعرفهم ليجلس معي ويزيل عني وحدتي وكآبتي!.. هل أبقى أدخن وحدي!، أشرب القهوة وحدي!، وأتأمل السقف والجدران والكرسي الوحيد في الظلام الهادئ وحدي!"..

قمت وتوجهت إلى النافذة المطلة على الشارع، وبدأت أجول بنظراتي عبر المارة.. لم أنتظر طويلاً، وقع نظري على قادميْن نحو الباب.. راقبتهما عبر أضواء الشارع.. كانا ضائعيْن.. وولجا البيت.

كانا حزينيْن وهما يحدثاني عن رحلة أبي محمود المفاجئة إلى جنوب لبنان.. كان بودهما أن ينتظرهما لينطلق الجميع في موكب واحد وأيديهم متشابكة قابضة على السلاح.. لكنه رحل دون أن يخبرهم.

أخي صلاح كان حائراً.. ووليد فاقد السيطرة على نفسه.. أحببتُ أن أتنزه معهما خارج البيت لأزيل الكآبة التي كانت تغمرنا، خرجنا ثلاثتنا من البيت.. سرنا طويلاً في الشوارع العريضة وفي الممرات الضيقة.. لم نتحدث في أمور هامة.. كان هناك ما يجعل كل واحد منا يهرب إلى عالمه الخاص مع أفكاره الحزينة، وتفكيره المحزن عبر جبال الصمت الباردة.. كنا نتبادل النظرات المعبرة بشوق قاتل.

فاجأنا أحد المصورين يلتقط لنا صوراً فوتوغرافية.. راقت لنا الفكرة، أدخل شعوراً بالارتياح إلى صدورنا.. أحسستُ في قرارة نفسي أني لن ألتقي بعد اليوم بأخي، فأحببت أن أطيل

الوقت معه ما استطعت.. والتقطنا الكثير من الصور لأحتفظ بها لنفسي.

كان أخي يسير وقد بدا واضحاً أنه مغلوب على أمره.. يشاركنا الابتسامة رغماً عنه، الهمّ يكاد يخنقه.. وفي داخلي كانت الكلمات تتصارع.. رحت أحدث نفسي "آه يا أخي.. لماذا أنت هكذا!، فيم تفكر!.. إن فلسطين حبيبة.. وسهير أيضاً حبيبه.. وكلاهما شجرة صبار تعيش بين حنايا قلبك.. للصبار روح وقلب، فلا تدفن حب واحدة في الأخرى، ولا تخلط بينهما".

عدنا أخيراً إلى البيت.. شعرتُ أن دمعاً يحتبس في عينيّ، أخفيت وجهي عن أخي عندما نظر نحوي.. حاول الاستفسار بعينيه، كنت أعلم أن في نفسه صراعاً أعمق وأعظم مما بنفسي، ومع ذلك كتم كل شيء.. ولما لم أجب على سؤاله، فضحه دمعه، فانهال عليّ بقبلات يملأ بها وجهي ويقول: "أخشى إن ذهبت، أن لا أعود يا صالح".. قلت له والألم يعتصرني: "لن تذهب وحدك يا أخي، سنبقى معاً".

كان وليد يخفي دموعه هو الآخر عنا، ومع ذلك حاول أن يزيل جو الحزن الذي خيم علينا فقال: "أنتم رجال.. فلماذا تحرقون مهجكم بدموع الأسى!".

لم أرد عليه، وأخي كذلك، لم يجب بحرف واحد، وآثرنا الصمت المعبّر، كان صمتاً عميقاً حارقاً، شعرتُ من خلاله أن جوارحي تكاد تقطر لهيباً وشوقاً.. شعرتُ برغبة شديدة في أن أضم أخي إلى صدري، أحضنه.. وعندما حاولت.. أبعدتُ فكرة الموت عنه، أجل، فكرة الموت هي التي سيطرت على نفسي وملأت كياني تلك الليلة، فلماذا الموت بالذات؟ لا أدري!..

كنت أعرف أن أخي سيرحل، سيغادرني مع موكب الرجال.. ومع ذلك تركته يستريح في ليلته، حاولت أن أقنعه بالبقاء عندي.. كان متردداً في البداية، أستلقي على فراشه ينظر إلى السقف، ويفكر.. أرقبه بصمت رهيب، والدمع يتحجر في عينيّ حين أفكر أنني لن أراه بعد اليوم.

كان يتقلب في فراشه، يحاول أن يتحدث معي فيصمت، يحاول أن يمد يده إلى وليد ليحول الصمت إلى حركة، فيعجز.. كان وليد هو الآخر يعيش لحظات رهيبة، وهو يستلقي على بطنه محملقاً بسلاحه المبسوط أمامه..

لم أعد أطيق الصمت.. أريد أن أتحدث، لكني أصمت..

كنت أراه بصمت المقهور يتقلب في فراشه.. ذلك المساء رأيت وجوه الثوار في ملامح أخي، كان غاضباً.. كانت

تكشيرة كبيرة تملأ وجهه الذي ما كان لي في يوم من الأيام إلا باسماً.. حزنه كان كبيراً.. كان الحزن يحتقن تحت جلده مثل دمعة في عين سجين.. أحسستُ حقاً أنه سجين رغم أن الشارع الذي سرنا فيه كان طويلاً وفسيحاً والبيت كبيراً.. وإلا فماذا يعني جلوسه، فوقوفه، فخروجه، ثم مجيئه.. ثم صمته الغريق!.

كان الآخرون يتحدثون ويثرثرون.. وكان يحمل هموم شعبه في جبينه، وفي العروق الحمراء وسط عينيه..

كيف يحزن الرجال ويغضبون في آن واحد!؟.

أخي صلاح كان حزيناً وغاضباً.. لكن رغم ذلك كله.. ألم يكن ذلك الذي يُطل من عينيه هو مضاء سيف عربي للغاية!.. أليس من ألم المخاض يولد العطاء!.

كان يعاني.. يسير في الشارع كما لو أن خنجراً أغمد في صدره حتى النهاية.. كان رفاق السلاح الذين رافقوه في الأغوار والأحراج يتوهجون في نبض عروقه، وينغلون مثل كريات الدم في الأوردة..

يتذكر من يعرفهم واحداً، واحداً..

يتذكر ابتساماتهم في ليالي السهر بالقاعدة..

يتذكر الشاي الساخن الذي يرتشفونه، وعيونهم لا تبتعد عن الحدود..

يتذكر فرحتهم عندما ينسف اللغم سيارة إسرائيلية..

يتذكر صوت أقدامهم، وهم يعبرون المخاضة..

يتذكر لهاثهم وفرحهم، وهم يعودون من الأرض المحتلة بعد عملية ناجحة..

يتذكر صورهم التي تُنشر في الصحف والمجلات، وسعادته وهو يتعرف على شخصياتهم من خلال الصور، رغم إخفاء عيونهم بالحبر الأسود..

يتذكر جنازات أحبهم إليه حين تعبر شوارع المدينة تطرزها من الجانبين زغاريد الأمهات..

يتذكرهم.. ويقرأ في الصحف أخبار قهرهم وتشردهم.. يسمع في الإذاعة أخبار صمودهم.. مَن منهم لا يزال يقاتل!، ومن منهم قضى نحبه!.. فتجرفه رغبة حارة في البكاء، لكنه يمنع نفسه، ويجاهد كي لا تنبجس دموعه.

كنت أرقب حركات أخي صلاح وأحدث نفسي كمن يخاطبه.. أليس من العيب يا أخي أن تبكي في الوقت الذي يموت فيه الرجال واقفين!.. أعرف أنك تود بكل نبضة في عروقك، لو كنت الآن بينهم.. لكن ماذا يجدي ذلك!..

ستصمد، ستصنع معهم سداً.. وإذا كان لا بد من الموت، فليكن ذلك معهم، بينهم، فيهم.

قال لي بعضهم إنك كنت يائساً.. لم أصدق ما قالوه..

صحيح إنك كنت هذا اليوم تنظر إلى العالم بكرهٍ ليس له مثيل..

صحيح أن سخطك على الذين خذلوك كان يؤلمك، ويملؤك من قمة رأسك حتى أخمص قدميك.. لكنك لم تكن يائساً..

قال بعضهم.. إنك تحت تأثير الانفعال فكّرتَ بالتخلي عن انتمائك العربي.. لكني أعرف تماماً أن العروبة هي الهواء الذي تتنفسه، والنبضات التي تخفق في فؤادك.. لقد ذبحوك، علقوك في الكلاليب، وأخذوا يسلخون جلدك.. وبعد ذلك فصلوا لحمك عن عظمك، انتزعوا فروة رأسك.. ورغم ذلك كله لم تمت..

كم أنت خارق يا أخي!، وظل الكبرياء جزء من أنفاسك وصمودك.. ورغم ذلك كله، رأيتك هذا اليوم تسير، تروح، تجيء، تتعذب، تتمنى لو كنت معهم.. لتصنع معهم سداً، لتموت معهم.. بينهم.. فيهم.

أخيراً يتمدد أخي.. يحاول أن ينام.. لكنه لا يعرف طعم النوم، يفكر بالشباب واحداً واحداً ويتساءل: كيف ينتقم لهم!..

كيف يحافظ ويرعى القضية التي استشهدوا من أجلها؟..
كيف يجتاز المرحلة، وكيف تستمر الثورة؟..

يشعر أنه مسؤول عن أمانة كبيرة حمّله إياها الشهداء والأرامل والأيتام، الشباب والشيوخ والثوار وأبناء الشعب.. و"مَن أمنك على أمانة لا تخنه ولا تخنها".. إنه مسؤول، ويجب أن يجد الحل من خلال الذبح والموت والتشريد..

أخيراً ترتسم على جبينه تقطيبة.. يشعر أنه وجد الحل..

لا يأس.. لا تفريط بالقضية، ولا انحراف عن مسارها الصحيح.. عليه أن يستمر في النضال، يناضل من أجل أن يكون النضال شريفاً ونقياً.. يناضل من أجل وقف الهزائم.. من أجل برنامج عمل علمي يناسب المرحلة.. من أجل ترسيخ الديمقراطية، وروح العمل الاجتماعي.. يناضل من أجل أن تسود الروح الأخوية البناءة.

فجأة تتغيّر ملامح أخي.. يشعر أنه وجد شيئاً، وأن لديه حلاً.. يشعر أن هناك ما يمكن أن يطرحه.. يهبّ من فراشه واقفاً.. يشعر أنه يجب أن يظل ممتلئاً باليقظة.. يحمل سلاحه،

ويدعو رفيقه وليد ليحمل سلاحه أيضاً.. ومع بزوغ الفجر يرتحلان لاحقين أبي محمود إلى قمة المجد.

***

حين أصر أخي على الرحيل المفاجئ تلك الليلة.. أعطاني كل ما كان يملك من وجع الكلمات الحزينة.

حين حمل سلاحه ومضى إلى خطوط النار في جنوب لبنان، حاملاً في قلبه ذكريات حبيبته وأهله، أرضه وشعبه، أصبحت ذكرياته على عذوبتها وحنينها قنابل في جيوبه، رصاصاً في بندقيته، وحمماً في نفسه.

حين أمعن في السفر بعيداً مع الرجال.. كانت الأرض تنتظره على الضفة الأخرى يسكنها وجع العيون المسهّدة.. مشرعة الأبواب، تتلوى في انتظار الغائبين الذين ارتحلوا تحت وهج الظهيرة، وأمطار النار التي يسكنها النابالم.

كان يرتحل مع وجع المواسم، وأغاني الحصاد الذابلة..

يرغب في أن يمرّغ وجهه بنداوة عشب أرضه البعيدة.. ويصرخ: "أيتها البعيدة القريبة، ازرعيني نبتة زيتون في تراب بلادي.. بللي أوراقي بالمطر، وليغسلني الغمام".

يسرح أخي بخياله في أفق الواقع، يبتسم وهو يحتضن بندقيته بحنان ولهفة.. يواجه بإرادته الفولاذية وإيمانه العميق بالنصر والحرية، شراسة قوى المعتدين، وبطش القوات الغازية.

***

لم تمض أيام ثلاثة على مغادرة أخي صلاح دمشق حتى اشتعلت الاشتباكات في جنوب لبنان بين جيش الاحتلال وقوات الثورة الفلسطينية.. فصبّ الجنود جام غضبهم وكل قذائفهم وحممها على المقاتلين بغية القضاء عليهم نهائياً.. ومن هناك بدأت برقيات الشهادة تتوارد.. قال أبو محمود "لن أستسلم.. سأستمر في حمل سلاحي أدافع عن الثورة الفلسطينية.. فإن مضيت، فإن أملي كبير في الأجيال القادمة لتكمل المسيرة.. أرى العشرات من حولي يتساقطون ويستشهدون في سبيل قضيتهم دفاعاً عن حقوقهم، وواجباً حمّلتهم إياه الجماهير العربية.. فإن وصلني الدور واستشهدت فسأكون مثل رفاقي الأبطال، سأكون أحد الجذور التي تخلف مئات السيقان والجذوع، ليكملوا مسيرة الثورة، ويواصلون حمل السلاح إلى نفس الهدف حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني".

انقطعت الأخبار مساء ذلك اليوم.. طوّقوا الثوار، واحتدمت معارك عنيفة خاض فيها المقاتلون معارك الأبطال، واستشهد العشرات منهم وهم واقفون يحملون السلاح.

***

في اليوم التالي تواردت أخبار معركة الشرف والبطولة.. وزُيّنت الصفحات الأولى بأسماء الشهداء بالخط العريض.. كانوا أبطالاً، وكان أبو محمود في مقدمتهم..

أخي صلاح ورفيقه وليد لم يكونا بين الشهداء، واستبعدتُ كثيراً أن يكونا من بين الأسرى.. قيل لي إنهما ما زالا في جنوب لبنان أحياء يحملان السلاح.. لم أستطع الاتصال بهما، عشت أياماً عدة في ضياع، وكلي أمل بالعثور عليهما.. ومع وصول جثامين الشهداء تحققتُ من موت الحبيب في الديار العربية الغربية.. تحققت من موت أبي محمود وهو غريباً عن وطنه.. بعيداً عن أهله، لكنه استشهد وهو يقاتل ويقود الثوار إلى طريق النصر.

آن للغريب أن يرتد إلى مدائن غربته.. "حدثت نفسي"، وأن يعود من بيادر الأمس بوجع المواسم، وحسرة الخضرة والربيع الذاهب.

آن للغرباء أن يعودوا إلى ديارهم، وإلى مثواهم الأخير في الفردوس الأعلى..

أجل أيتها البعيدة القريبة.. كلنا عائدون في نفس الركب ونفس الدرب.. عائد هو يا أرضي، وعائد أنا يا أرضي.. لكن مشوارنا طويل يا أرضنا الغالية.. قد نصل إليك فاتحين أو شهداء حين نستقل نفس القطار العائد من نفس الدرب، فانتظرينا، وانتظري كل من ضحوا في سبيلك، نريد أن نراك واقفة منتصبة أمامنا دون أن يُحنى رأسك، مهما عذبك الأعداء.

كنت أحدث نفسي متمنياً لو كنت بينهم، فيهم، لأصنع سداً معهم.. الجموع تسير وعلى أكتافها الأكفان المطرزة بالأعلام الفلسطينية.. الساعات تمر بطيئة رهيبة، الجماهير تملأ شوارع دمشق وبيروت تحيي الأبطال، تمجد بطولاتهم، واستبسالهم في سبيل الثورة.. فجأة وقع نظري على أخي صلاح ورفيقه وليد وسط حملة النعوش، لم أصدق بداية الأمر.. ومع ذلك شعرتُ بروحي تعود إلى جسدي رغم الحزن الذي كنت أعيشه تلك اللحظة.

أيام عدة مضت وأنا غارق بالحديث معهما، حدثتهما عن طبيعة عملي، وأخبرتهما أني سأغادر دمشق إلى الكويت في

مهمة عمل بخصوص الثورة الفلسطينية.. وفي مساء اليوم التالي كانت الطائرة تحط بي في مطار الكويت، ومن هناك تواصلت الأخبار بيني وبين كل معارفي.

***

كنت أنتظر إجازتي بفارغ الصبر لأعود إلى دمشق.. أشهر ثلاثة مرت أنجزتُ خلالها أعمالاً كثيرة..

ذات ظهيرة، دق جرس الهاتف.. سمعت من الجانب الآخر صوت أخي صلاح.. فاجأني أنه قرر الزواج من سهير.. وإنها موجودة في بيروت مع الوالدين والعائلة.. وفي معرض حديثه أضاف أن حفل الزفاف سيكون يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر شباط، ودعاني لحضور الحفلة.

لا أدري ما الذي جعل قلبي يخفق خفقاناً أكثر من المعتاد.. رغم الفرح الذي غمرني، إلا أني شعرتُ بانقباض في أعماقي.. طردت الفكرة التي تلبستني تلك اللحظة، وحدثتُ نفسي أن أخي استطاع أن يطرد اليأس الذي عشش في صدره لمدة طويلة، وإنه انتصر على فكرة الموت التي كانت تراوده وتهز كيانه.. أخذتُ أبحث عن فكرة التغيير التي داهمته وجعلته يغير موقفه، ولا أدري لماذا تسارعت إلى ذاكرتي

فكرة الموت من جديد.. أجل، الموت الذي تسابق إلى ذهني مع فكرة الزواج، واحتل مكاناً في الزاوية المعتمة منه.

عدت لفرحتي متناسياً كل شيء عداها.. متناسياً دقات قلبي السريعة التي لم أعرف لها سبباً غير الغموض والإبهام، وحسمت الأمر سريعاً، إذ قررت السفر إلى بيروت مهما كان الثمن.

***

رحل يوم الأربعاء الذي وصلتني فيه المكالمة.. وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس أقلعت الطائرة من مطار الكويت في طريقها إلى بيروت.. كنت في شوق جارف، أنتظر ساعة الوصول بلهفة عارمة، وقلبي يتراقص جذلاً وفرحاً قبل أن تصافح يدي يد أخي صلاح، احتضنه وأعانقه.

قبل أن ترتفع الطائرة إلى عنان السماء، قفزت إلى ذهني صورة أخي، قبل أن يكون ثائراً.. يوم أن كان يعشق الحياة ويحب سهير في مدينة السلام.. راحت ذاكرتي تمخر في عباب بحر من الذكريات.. فتعيدها مخيلتي إلى صور وأحداث متحركة على شاشة صغيرة كوّنها نظري على نافذة

الطائرة، أتصفح قالب حياته منذ بدايته وحتى تلك اللحظة، ولا أدري كيف مر الوقت ووجدتُ الطائرة تحط على مدرج مطار بيروت الدولي.. كنت مشبعاً بالذكريات حتى خُيّل لي أني أكاد أطير عن الأرض لمعانقة أخي.. وسرت كمن يقفز عن الأرض قفزاً، لأقصّر المسافات وأوقف الزمن.

الوقت كان مساء.. توجهت مسرعاً إلى بيت أخي الذي أخبرني عن عنوانه خلال مكالمته، ولسوء الحظ لم أهتد إليه.. وجدت هناك بعض حواجز المسلحين، فآثرت التوجه إلى أحد الفنادق لأقابل أخي في الصباح.

نمت تلك الليلة وأنا أحلم بأجمل لقاء، وأحلى مفاجأة، أقدمها لأخي بوجودي في حفل زفافه.. شاهدت نفسي تلك الليلة في حلم مرعب، كنت أعيش أجواء معركة حامية الوطيس بيني وبين مجموعة من جنود الاحتلال.. قاتلتهم بضراوة، لكن رصاص الغدر أصابني في صدري، فوقعت على الأرض.. فجأة شاهدت أخي صلاح هو المصاب، رفع رأسه، نظر إلي وقال "وداعاً يا أخي.." وقبل أن يكمل، وجدت نفسي أهبّ من نومي مذعوراً وأنا ألهث لهول ما رأيت.. استعذت بالله من شر ما يصيب الإنسان.. ثم أبعدتُ فكرة الموت عن مخيلتي، وفسرت الحلم في داخلي بأن الموت هو الحياة والزواج، إلا

أن ذلك الخوف لازمني طوال فترة الصباح، ولم يفارقني لحظة.

مع شروق الشمس قمت وتوجهت إلى بيت أخي فوراً.. سرت وفي أعماقي رجفة تكاد تقتلعني عن الأرض، وتطيح بي إلى البعيد، ومع ذلك أبعدت كل مخاوفي وتوجهت إلى محل قريب لبيع الزهور، اشتريت باقة من الورد الملون لأقدمه لعروس أخي في أجمل يوم اعتقدتُ أنه سيكون.

في التاسعة صباحاً وقبل أن أصل البيت، عرجت على مكتب منظمة التحرير القريب من الفندق الذي أقيم فيه لمقابلة أحد الأصدقاء، فقال بأن عبد الله حامد لم يأت من الجنوب، فقد عرف الثوار منذ أيام عدة أن جنود الاحتلال يستعدون لهجوم على الجنوب، فألغيت الإجازات، وبقي مع رفاقه في القاعدة.. وقبل أن أغادر المكتب تسربت الأخبار بأن جنود الاحتلال تقدموا في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم بأرتال كبيرة نحو الجنوب اللبناني، فتصدت لهم قوات المقاومة مع قوات الجيش اللبناني، وما زالت الاشتباكات مستمرة حتى لحظة إعلان النبأ.

جالت بخاطري أفكار غامضة ويائسة وأنا أخطو نحو الفندق، لأضع باقة الزهور في غرفتي حتى عودة أخي، وفي

نفس الوقت تمنيت أن أكون معه وبجانبه لأحميه بصدري.. أبعدتُ كل مخاوفي، وفكرت فقط بلقائه منتصراً في حفل زفافه..

تباطأ ذلك النهار بغضبه ولهيبه.. أتى الليل والمعارك لا زالت تحتدم في الجنوب، والجنوب ما زال يشتعل بالنيران والقذائف.

بدأتُ أنتظر وقف إطلاق النار بفارغ الصبر ليعود أخي سالماً، وألتقي به بعد هذا الغياب الطويل.. مر اليوم التالي على المعركة، وأنا أنتظر.. أحسستُ أني أتمزق من الأعماق وأنا أنتظر، توقف تفكيري تماماً عندما صحوت من نومي الذي لم يدم لأكثر من ساعة فقط، عندما شاهدت نفس الحلم المزعج الذي رأيته سابقاً مع فارق بسيط في كيفية الموت.. إذ قاتلتُ الأعداء حتى استشهدت، وفجأة رأيت أخي هو الشهيد.. كان يرتدي بنطالاً أبيض اللون.. وقد شاهدته بأم عيني في حلمي المرعب وجسمه يتمزق، كان بالياً تماماً.. عند ذلك سيطرت فكرة الموت على مخيلتي، وأيقنتُ أني لن أراه مجدداً.. فكرة الموت باتت ترعبني، ولم أحاول أن أطردها هذه المرة بعد أن قاومتها كثيراً ولم أستطع.. وكنت أتصور طيلة النهار نفس الحلم.

صباح اليوم الثالث للمعركة صحوت من نومي مذعوراً، بعد أن حلمت نفس الحلم، لكن مع اختلاف في مكان الموت، حيث شاهدته يتمدد على فراشي في نفس الغرفة التي عشت فيها معه أيام الطفولة، وقد غطى عينيه براحتيه وقال: "تعال يا أخي، فأنا مشتاق إليك، سأبقى هنا حتى تأتي إليّ".

صباح اليوم الرابع طالعتنا الأخبار أن القوات الإسرائيلية بدأت بالانسحاب من الجنوب مخلفة عشرات القتلى، وفي نفس الوقت بدأت قوافل الشهداء والجرحى تفد من أرض المعركة إلى بيروت.

للمرة الثانية توجهت إلى مكتب المنظمة أستفسر عن أخي.. كنت أحس بشيء يهز أعماقي، ولم أعد أشعر بضجيج الناس من حولي.. عرفت من المكتب أنه في اليوم التالي سيتم تشييع خمسة من الشهداء.. وحين حاولت الاستفسار عن أسماء الشهداء أو الجرحى، لم أفلح..

كانوا حوالي أربعين شهيداً من مختلف الأقطار العربية.. من ليبيا، من الأردن، من العراق، من سوريا، من مصر ومن لبنان.. كلهم ضحوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عن وطنهم فلسطين.

لم يخبرني أحد عن الأسماء.. تناولت الأوراق الواردة في نفس اللحظة وقلبتها رأساً على عقب.. توقفت لحظة، حدقت النظر في أسم لم أعد أر سواه.. شعرتُ أن في أعماقي شيئاً يتمزق.. أذكر أن دمعة مثل حبة رمل قفزت من عيني ثم تحجرت، لم أعد أر شيئاً، ولا أذكر بعد ذلك غير ألم حاد في رأسي، بعد أن شعرت أنه ارتطم بشيء صلب على الأرض.

لم أكحل عينيّ برؤية أخي.. أحسستُ بارتطام رأسي في جدار خلفي وشعرتُ بقشعريرة تملأ جسدي.. لا أدري كيف مر الوقت، كنت أشاهد أشباحاً متحركة تروح وتجيء، تبدو أحياناً سريعة الحركة وأحياناً بطيئة.. تملؤها صورة أخي في دمعة كبيرة تغزو مقلتي، ثم تسقط بانحدار إلى الأرض التي ستضم رفاته.

لا أدري كيف فاجأتني الأنباء بخبر استشهاد أخي.. إنه يوم فرحه.. فيه حقق أمنيته الغالية، ورحل مع الخالدين تزفه الجماهير الثائرة..

كيف طاوعته نفسه وتركني حائراً أتخبط في دياجير الظلام أبحث عنه وسط مواكب الشهداء!.. أية هدية اختارها ليستقبلني بها في يوم زفافه!..

بعد صلاة ظهر يوم الأربعاء الأول من آذار، سارت الجموع تشيع الشهداء وقد أرتفع منهم خمسة على الأكتاف موشحين بالأعلام الفلسطينية، بعد أن رحل بقية الشهداء إلى بلادهم.. خمسون ألف مشيع ساروا وهم يهتفون بحياة الشهداء والثورة التي خلدتهم.. وفي عينيّ كما في عيونهم حبات من الدمع من ذلك النوع الذي يحجب الرؤيا..

بالأمس يا أخي كنت معك.. وبالأمس كنت معي..
وها هو اليوم يفاجئني نبأ أليم..
فداحته أعظم من أن أصدقها..
لقد قتلوك يا أخي.. يا حبيبي..
ورموا جسدك في مكان مجهول..
ولماذا.. لأنك زمن الحرب.. حملت السلاح..
وهذه هي حجتهم الوحيدة..
إنك ثائر.. مطالب بالحق..
إن قلبي يتمزق.. فهل أنا حي أم ميت..
لقد كنت وأنا طفل أحب وطني لعصافيره..
وكنت أرتاد وإياها الحقول..
واليوم.. أحب وطني لأن كل حفنة تراب..
تحمل قطرة من دم أخي.. حبيبي..

في ذاكرتي، وأنا أمشي في الموكب أشيع جثامين الشهداء، لا أدري كيف كنت أستعيد مقطوعة للشاعر الفيتنامي "جيانج نام" من قصيدة الوطن.. بينما كان الجميع يتحدثون عن معركة الشرف وعن الشهداء.. قاتل عبد الله حامد ورفاقه حتى دمروا ثلاث دبابات إسرائيلية، وقتلوا العديد من جنود الأعداء، ولم يستشهد عبد الله إلا من جراء قصف الطيران، بعد أن أوقف مع رفاق السلاح التقدم الإسرائيلي في جهة بنت جبيل من الجنوب اللبناني، وأذاقوا جيش الاحتلال طعم الموت قبل أن يذوقوه، حين دمروا أكثر قواته التي تقدمت تُدنّس كرامة جنوب لبنان.

من بين المشيعين وقع نظري على وليد.. كانت عيناه تقدح شهباً أثر الحزن على رفيق دربه وهو يأخذني بين ذراعيه، والجميع يرددون وينشدون أناشيد النصر، ويشيدون بالثورة وبحياتها.. وأنا بين الجموع أتحدث في قرارة نفسي مع أخي الحبيب.. "عندما تلوح تباشير العرس الدموي، وتزف العروس المسبية إلى فارسها الذي عاد مثخناً بالجراح مكللاً بالغار.. وعندما تعانق الأذرع المبتورة صدر الأرض، وتلثم الشفاه المحروقة وجه التراب المخضب بالعرق والدم.. عندها، يصير طعم الجرح عسلياً يا أخي.. عندها.. تورق من

منابت الأذرع المبتورة أغصان يانعة خضراء.. تفوح من ثنايا الثرى المجبول بدمك ودم الشهداء والجرحى رائحة أسطورية كالكافور، وتسمع الآذان عندها لحناً خالداً يملأ أرجاء الفضاء، يردده كل العائدين بالجروح والدماء والفرح..

عندها تُدرك يا أخي روعة العودة".

***

في مقبرة الشهداء وقفت الجموع تودع الراحلين إلى الفردوس الأعلى، وتغرس الجذور الخضراء اليانعة، وهم يرفعون أذرعهم راسمين علامة النصر بأيديهم، معبّرين عن الثورة بحزم وواقع.. ووقف والدي الذي لم أره منذ فترة طويلة، في مقدمة المشيعين قرب جثمان ولده الشهيد.. شفتاه تطلب له الرحمة، والجماهير تهتف بالنصر.

قال وقد حُلّت عقدة لسانه بعد أن أزاح العلم الفلسطيني عن وجه ولده ونظر إليه: "هذا ابن الوطن، أبن فلسطين والثورة.. واحد من الجذور التي تُغرس اليوم لتنبت غداً عشرات السيقان والأذرع، تحمل السلاح وتقود المسيرة نحو الحرية والتحرير".

للحظة، شعرتُ أن والدي انخرط في صفوف الثورة، لكن الدموع التي قفزت من عينيه فجأة وأوقفته عن متابعة الكلام، جعلتني أدرك مدى الحزن الذي يكتنفه.. فتقدمتُ منه ورغبتُ أن أفاجئـه بوجـودي، إلا أن الجمـاهير حالـت بينـي وبينـه.. فأسرعتُ إلى الفندق ألملم حاجاتي لأعود إليـه.. مـا أن دخلت غرفتي حتى شاهدت باقة الزهور قد أذبلها الحزن.. أحسستُ بها وقد أحنت سيقانها وتناثر الندى على أوراقها تبكي أخي أيضاً، حملتها وعدت إلى المقبرة، شاهدت المشيعين يرحلون، ولم يبق غير القليل منهم يجلسون قرب أكوام التراب الذي يحوي أجساد الشهداء الطاهرة.. وقبل أن أتقدم أنثر الورود، شـاهدت سـهير تتشـح بالسـواد.. تتقدم وتركـع قـرب ضـريح صـلاح والـدموع تمـلأ عينيهـا.. وفيمـا كنـت أضـع باقـة الـورد على مقربة منها، شعرتُ بدموعي تنساب على صفحة وجهي بلا توقف، وأنا أردد بصوت ضعيف:

"خذ يا راحلا إلى الأفق في قطار العودة..
خذ بين يديك دفاتر الصمت.. فأنا آت اليك يا حبيبي..
آت إليك أيتها البعيدة القريبة.. يا أرضي الحبيبة..
سـألتقي بالعائـدين علـى مهـدك الطـاهر، فعلـى عتباتـك تـدلى عنق هذا القلب، وتحت دوالي كرومك افترش العشب الندى..

سـأعود، وسـأردد مـع الجمـوع الثـائرة، مـا رددتـه قوافـل العودة من قبلنا في ترنيمة الأرض الخالدة لتشق الأفق وتزرع الفجر في قلوب العائدين".

وفي اللحظـة التـي تقدمتُ فيهـا نحـو أبـي لأعانقـه، شـاهدته يتقدم مـن سـهير، يحتضـنها ويربـت علـى كتفهـا، وهـي تبكـي الشهيد بحرقة وألم، ثم يأخذها بعيداً، وأنا أقف أرقبهمـا وحـال نفسي تقول:

آه يا جرحي المكابر..
وطني ليس حقيبة..
وأنا لست المسافر..
إنني العاشق.. والأرض حبيبة.

****

السيرة الذاتية للمؤلف

المؤلف في سطور

الاسم : إبراهيم ذيب نافع الفقيه

اسم الشهرة : إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي وباحث
- مواليد صوبـا / القدس / عام ١٩٤٦ م .
- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- يكتب القصة القصيرة والرواية.
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا.
- عضو اتحاد كتاب أمريكا اللاتينية.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..

مؤلفات إبراهيم الفقيه

- الروايات:

١- جذور في طريق التحرير- دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٤م.

٢- الهذيان – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٥م .

٣- الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٢م.

٤- ما زال للصبار روح، دار النهضة، عمان ١٩٩٣م .

الطبعة الثانية – دار الأيام للنشر والتوزع، عمان ٢٠٢١م

٥- الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م.

الطبعة الثانية – دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٢٠م

٦- الأرض الحافية - دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م .

الطبعة الثانية – دار الأيام للنشر والتوزيع – عمان ٢٠٢٠م

٧- نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .

الطبعة الثانية – دار الأيام للنشر والتوزيع – عمان ٢٠٢٠م

٨- ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .

٩- أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م

١٠- قناديل الروح – دار فضاءات، عمان ٢٠١٣م

١١- ظلال العمر – رواية – الآن ناشرون وموزعون – عمان ٢٠١٨م

١٢- أجنحة الغبار – دار الفارابي – بيروت – ٢٠١٩م

- مجموعات قصصية :

١- القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م

٢- فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- تاريخ :

١- صوبا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – عمان ١٩٩٦م
الطبعة الثانية - دار الأيام للنشر والتوزيع – عمان ٢٠٢٠م.

إبراهيم الفقيه

البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com

موقع صوبا: www.subaa.com